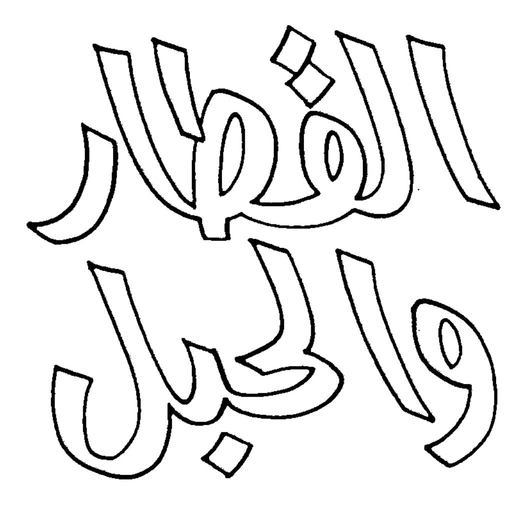
السيد عبد الرؤوف



مجموعة قصصية

الطبعة الثانية
١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م
جدة - المملكة العربية السعودية

صَدَرت الطبعَة الأولى من هَذا الكتاب
عـــام ١٩٨٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

الناشر

تهامة

جدة - المملكة العربية السعودية

ص.ب : ٥٤٥٥ - هاتف : ٦٤٤٤٤٤٤

القطار والحبل

«مجموعة قصصية»

الإهداء

كثيرون هم الذين أشعر بأنى مدين لهم .. ولكن هذا الرجل بالذات وقف بجانبى طويلا بإصرار ، وبعدت عنه كثيراً دون قصد . ورغم هذا البعد ظللت أشعر بأنى مدين له ، وأحلم بيوم أستطيع فيه أن أرد له بعض فضله ، ولعلى بإهداء هذه المجموعة القصصية إلى الدكتور أحمد الشرباصى أكون قد وفقت فى التعبير عن شكرى العميق له .

السيد عبد الرؤوف




الأصباغ



الأصباغ

ضحك العم كامل فى ذلك اليوم أكثر مما ضحك فى أى يوم فى حياته ... ربما أكثر مما ضحك طوال حياته . فى البداية أصيب بالذهول وتجمدت أطرافه ، وفى لحظة تبدد الذهول وفقد العم كامل إتزانه وتخلى عن وقاره وضحك . إستلقى حتى تألم . كان شيئاً فريداً وغير قابل للتصديق ما رآه . كان المدير العام بالفعل يرتدى ثياب المهرجين ويضع على وجهه الأصباغ ويدور ويرقص فى صالة الشقة ثم يقف على يديه رافعاً قدميه إلى أعلى . ولو قيل للعم كامل قبل ذلك أن أحداً يكيل الماء بالغربال لصدق أن هذا ممكن . ولكن أن يحدث هذا من المدير العام فإنه كان يتهم من يقول ذلك بالجنون . فالعم كامل هو أقدم الفراشين فى الادارة كلها . مدة خدمته تمتد ثلاثين عاماً إلى الوراء . منذ جاء صبياً مع أبيه إلى هذا المكان وهو ملتصق به . وعندما كبر فى السن قليلا وأصبح يمكن الاعتماد عليه أصبح الفراش الخاص لمكتب المدير العام . ومن هذا الوضع تعامل مع مديرين كثيرين ، أعجب بالبعض وضاق بالبعض الآخر ، ولكنه خدم الجميع بنفس القدر من الإخلاص ، ولكنه فى الحقيقة لم يحسب حساباً لأحد منهم بقدر ما فعل مع شاكر عبد المنعم المدير الحالى ، فهو أصغر المديرين سناً ، وأكثرهم نشاطاً وحيوية ودقة فى المواعيد ، وحرصاً على أن يكون كل شىء فى مكانه الصحيح ، وأن يؤدى كل عمل فى الوقت اللازم وبالدقة اللازمة ، ولذلك كانت له رهبة فى نفوس الموظفين ، ومع ذلك لم يستطيع أحد أن يكرهه رغم ما يبدو عليه من قسوة أحياناً ، فقد كان حريصاً فى نفس الوقت على تحقيق العدالة بين موظفيه ، وكان المقياس الوحيد لتمييز موظف أو آخر لديه هو مقدار كفاءة هذا الموظف

أو ذلك وقدرته على إنجاز ما هو مطلوب منه ، ولذلك فقد حظى لدى الموظفين بالاحترام إلى جانب الرهبة ، وكان يحرص دائما على أن يتجول بين الأقسام ويتابع أعمال الموظفين ليتأكد من أن كل شيء يجرى على مايرام ، وأن ليس ثمة أحد له شكوى من تعطل عمل يخصه . ولكنه منذ فترة أصبح يميل إلى العزلة ، وأصبح يكتفى بمتابعة العمل تليفونياً ، والاطلاع بإنتظام على التقارير الدورية التى يعدها رؤساء الأقسام ، كما أنه أصبح عصبى المزاج أثر حادث التصادم الذى تعرض له مع أسرته وراحت زوجته ضحية له ، ففى أعقاب هذا الحادث ظل الرجل عدة أسابيع تحت العلاج ثم ظل أسابيع أخرى فى فترة النقاهة ، وعندما عاد إلى العمل ظل لفترة وكأن شيئاً لا يعنيه وشيئاً فشيئاً بدأ يستعيد قدرته على إدارة العمل ، لكنه ظل مع ذلك منطوياً على نفسه .

كان فى الواقع ممزقاً من الداخل ، ولكنه بدا متماسكاً ، وكان الجميع يتفهمون ذلك ويعرفون أسبابه ، وكان أكثر الناس تفهماً وتعاطفاً هو العم كامل الفراش العجوز .

وفى ذلك اليوم وقبل أن يغادر الأستاذ شاكر عبد المنعم مكتبه إستدعى إليه العم كامل .. وطلب إليه البقاء فى المكتب حتى يتم إعداد أوراق يحتاجها وسوف يرسل السائق لاستلامها ، وعندما إنتهى اعداد الأوراق وضعها العم كامل فى مظروف خاص ، وانتظر طويلا ، ولكن السائق لم يحضر ، وانصرف كل الموظفين ولم يبق أحد سواه ، وتأخر الوقت كثيراً ولم يحضر السائق ، قرر العم كامل أن يذهب فيوصلها بنفسه ، ولم يكن ذهب بيت المدير العام إلا مرة واحدة ولذلك فقد إحتاج لمجهود لكى يستدل على البيت ، وعندما وصل إلى باب الشقة عدل هندامه وتردد قليلا قبل أن يضغط زر الجرس ، وبعد برهة فتح الباب ... وأصيب العم كامل بالذهول وكاد يسقط مغشياً عليه .. كان الأستاذ شاكر عبد المنعم بلحمه وشحمه هو الذى فتح الباب ، وكان يرتدى ثياب مهرجى السيرك ، ويضع على وجهه الأصباغ ، وكان يبدو منهمكاً إلى حد أنه فتح الباب سريعاً وعاد إلى الداخل .. وظل العم كامل متردداً بين أن يدخل ، وأن يعود أدراجه ... أخيراً دخل ، وتكثف ذهوله .

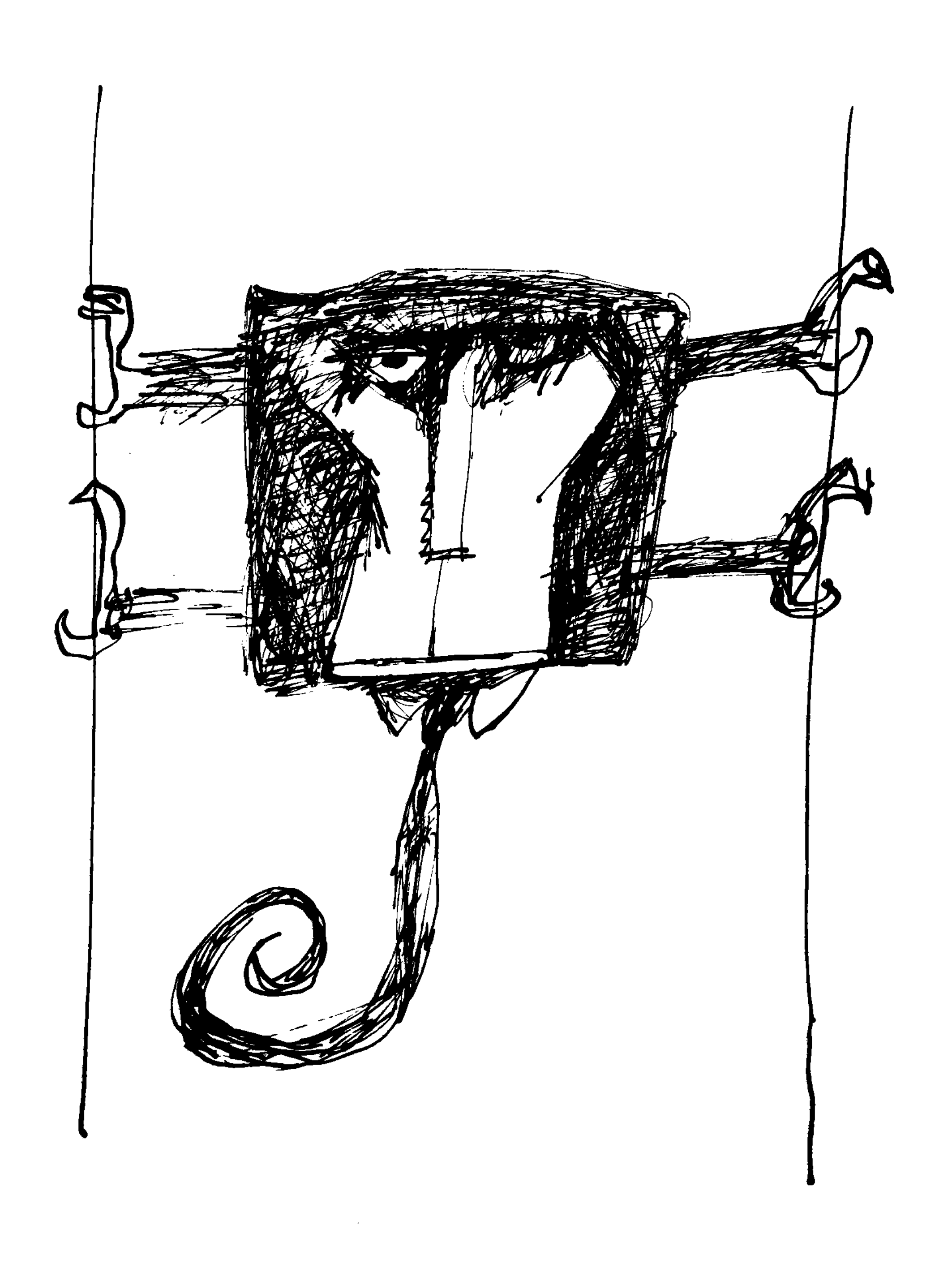
كان الأستاذ شاكر عبد المنعم يقوم بألعاب بهلوانية ويرقص ويغنى بينما من ركن فى الصالة تتردد ضحكة بريئة لا يمكن تجاهلها ... ظل العم كامل بضع ثوان يكاد يطير عقله ، وفجأة تبدد الذهول ، وغرق فى نوبة من الضحك العاتى ،

واختلتطت الضحكات ، ولكن نظرة من العم كامل إلى المدير العام أعادت إليه عقله ، فأدرك فى لحظة أنه مقضى عليه لا محالة .

كان المدير قد توقف فجأة ، وبدا الشر فى ملامحه بقدر لم تستطع الأصباغ إخفاءه ، وأصيب العم كامل بذعر ، وتمنى فى لحظة لو أنه مات قبل أن يقف هذا الموقف .. لم يخفه الاحتمال المؤكد بأنه سيفقد عمله ، ولكنه أدرك أنه قد إرتكب جريمة منكرة ، وهتك أستاراً ما كان يحق له أن يهتكها وإنتابته رغبة عنيفة فى البكاء .. فقد تذكر فى لحظة ما تردد عقب حادث التصادم المروع أن الأستاذ شاكر عبد المنعم قد نجا بأعجوبة هو وطفلته وأن الطفلة قد أصيبت بالشلل نتيجة الحادث .. وأدرك أى قيمة إنسانية أهدرتها حماقته .. نظر إلى الطفلة فى مقعدها المتحرك ، وقد إنتابها الذعر ، فاتجه إليها ماداً يديه يطلب الصفح ، ويستنجد بها .. أشاحت الطفلة عنه خائفة ، ولكنه تشجع وأمسك بيديها يقبلهما بصدق ، وقليلا .. قليلا ، أفرخ روعها واطمأنت ، مدت يدها إلى رأسه .. شعر بالأمان .. فقد الإحساس بالخوف من المدير العام ، ورغم نظرات الغضب مد إليه يده فأخذ ملابس المهرجين ، ارتداها فى صمت ، وبحث عن الأصباغ ، لون وجهه ورقص .. ضحكت الطفلة .. ضحكت كثيراً .. شعر بالسعادة الحقيقية لأول مرة ، ومنذ ذلك اليوم أصبحت متعته الحقيقية أن يذهب إليها كل يوم فى نفس الموعد فيرقص ويغنى ، وتظل هى تضحك حتى تتعب وتنام فيحملها إلى سريرها .







قرد فوق الستار



قرد فوق الستار

قرد هو .. ولكنه ليس مثل كل قرود الدنيا .. هو قرد متميز مثقف ... يرتدى الملابس الكاملة ويضع نظارة على عينيه ويطالع الصحف ويكتب .. وفى هذه اللحظة بالذات كان يجلس على مقعده الوثير خلف مكتبه الانيق فى غرفته الرحبة ذات الهواء المكيف والستائر المزدوجة .. ومنذ لحظات قدم له الفراش كوب الشاى كما جرت العادة فى كل صباح .. وقبلها كان قد فرغ من تناول طعام الافطار كالعادة .. وما كاد يفرغ من احتساء الشاى حتى جاء الضيوف .. توقفوا أمام باب الغرفة يتقدمهم دليل فى المبنى الكبير .. نظروا إليه فنظر اليهم .. حيوه فحياهم .. تحدثوا إليه ... ففرك يديه جذلا .. كادوا يمضون فى طريقهم ولكنه استوقفهم ... قفز إلى أعلى المكتب بحركة واحدة ... ثم قفز إلى أعلى الستارة بحركة أخرى ... أمسك طرف الستارة بيده وحياهم باليد الأخرى .. وقفوا مشدوهين ومسرورين فى نفس الوقت ، وألقى إليه بعضهم الحلوى والبعض الآخر قدم له قروشاً .. أكل الحلوة وأخذ يعد النقود وهم يتفرجون عليه مبهورين .. قفز من أعلى الستارة إلى حافة الباب فتراجعوا فى فوضى .. ضحك وأحدث حركة قبيحة ، فضربه الدليل .. غضب ولكنهم مضوا فى طريقهم وبقى الدليل يونجه ..

دق جرس التليفون ، فشده من حالته القرودية هذه .. ولكنه لم يكن قد خرج منها تماماً .. فقد رد على التليفون بأصوات غير مفهومة .. سألة صديقه على الجانب الآخر ان كان قد حدث شيء .. نفى حدوث أى شيء ، وخرج تمام من حالة القرودية .. أكمل المحادثة التليفونية وجلس مندهشاً .. وتساءل ان كان ممكناً أن يؤدى التفكير فى شيء إلى حدوث هذا الشيء بالفعل .. توقف كثيراً

وضحك عند فكرة أن يكون قرداً حقيقياً ... وذهب بفكره إلى صباح اليوم السابق حينما قالوا له إن وفداًكبيراً سيزورهم فى اليوم التالى ، ويجب ان يكون الجميع فى أبهى صورة .. قال : يجب أن نتصرف بشكل طبيعى وتلقائى ، والناس فى العمل لا يلتزمون بلباس معين الا لدواعى السلامة والامن ... وغير ذلك فإن أى ملابس تكون مناسبة ما دامت لا تجافى الذوق العام .. قالوا له أن الشكل الجيد يعبّر عن المضمون الجيد وليس ثمة انفصال بين الشكل والمضمون .. قال إن هذا قد يكون صحيحاً فى الفن .. ولكنه غير صحيح دائماً فى الحياة .. فقطعة الماس لا تفقد قيمتها الكبيرة مهما كانت كمية الأتربة والشوائب التى تحيط بها .. وقطعة الزجاج تظل مجرد قطعة من الزجاج مهما بلغت درجة بريقها ولمعانها .. ظل عند رأيه ... وظلوا عند رأيهم ، وكان عليه أن يمتثل .. فلا بد أن يرتدى الملابس الرسمية الكاملة لدى قدوم أى ضيف وأن يكون فى استقبال أى ضيف وأن يكون فى ذلك قدوة لمن معه .. كان يعرف أنه فى غير شهور الشتاء فان ارتداء البدلة الكاملة يسبب له مشكلات صحية ونفسية عديدة أبسطها الحساسية وليس أقلها أنه يشعر أنه داخل قفص من الحرير والقطن والصوف والألياف الصناعية .. وعندما يكون ارتداء البدلة الكاملة مرتبطاً بزيارة شخصية كبيرة أو وفد من الوفود فان القفص يصبح قفصاً فى حديقة حيوان ويصبح هو قرداً أو طائراً من طيور الزينة يتفرج عليه الناس بضع دقائق ويذهبون فى طريقهم .

فى هذا الصباح بالذات ، كان عليه ان يرتدى البدلة الكاملة .. اختار طاقماً متناسق الألوان .. وعندما انتهى من ارتداء ملابسه كان ابنه الصغير قد استيقظ .. ورآه بنصف عين وسأل فى براءة :

أبى .. هل أنت ذاهب لتحارب ؟

قال : لا يا بنى ..

سأل : إلى أين أنت ذاهب إذن ؟

قال بهدوء : ذاهب إلى حديقة الحيوان ..

قال الابن : هل تأخذنى معك ؟

أجاب وهو يتردد بين اللطف والغضب : لا يا بنى ..

قال الابن : اذن هل تأخذنى فى وقت آخر ؟

قال : ان شاء الله ..

سأل الابن : هل فى الحديقة أسد ؟
قال : نعم ...
سأل الولد : وفيل يا أبى ؟
أجاب : وفيل أيضا .. وقرود .. وثعابين ..
اضطرب الولد لدى سماع اسم الثعابين .. وسأل :
أبى .. هل ستقتل الثعابين ؟
قال : لا :
سأل الولد من جديد : اذن ماذا ستعمل هناك ؟
قال من بين أسنانه : سأعمل قرداً ..

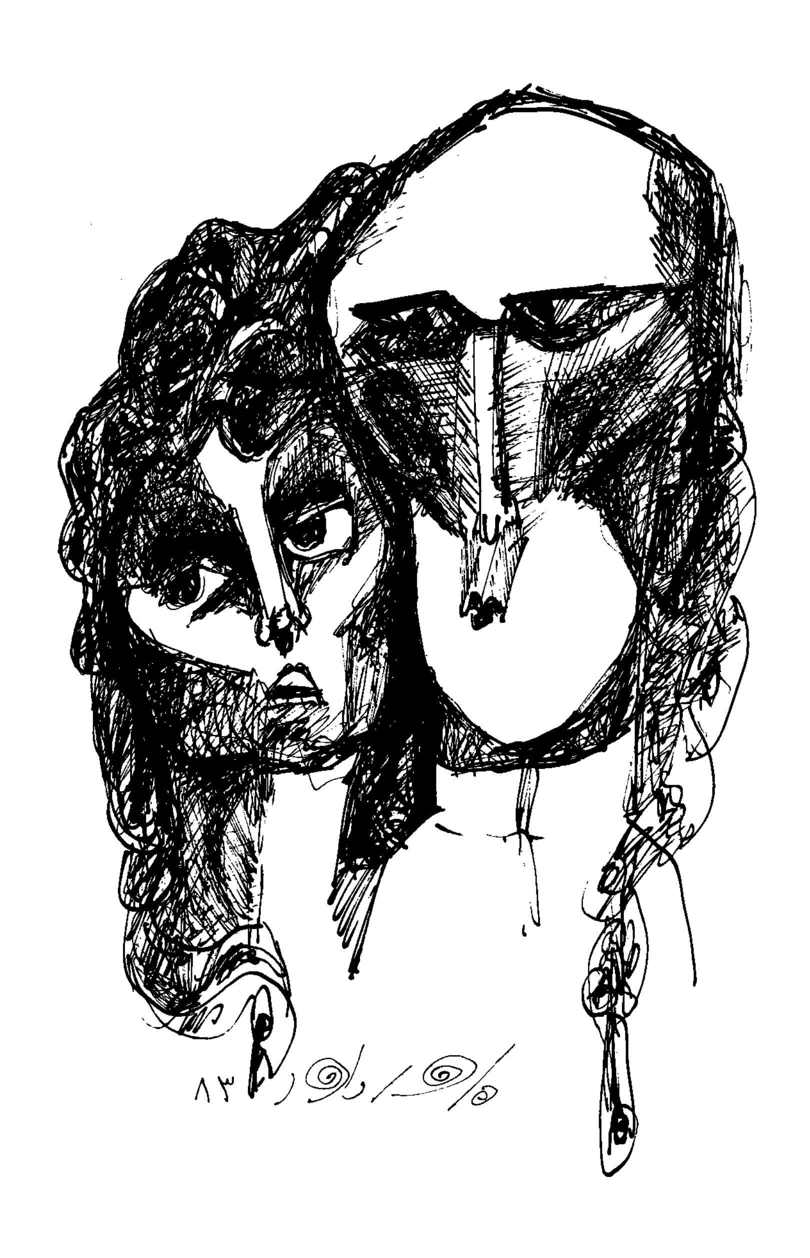
سر الطفل الصغير سروراً هائلا ، وترك فراشه وهو يردد بسعادة : « بابا قرد .. بابا قرد » ..

ابتلع غضبه ، وقبل الطفل الصغير فى هدوء ، وذهب إلى عمه ، واحساس بالنكد يسيطر عليه .. وعندما وصل إلى مكتبة . كانت معنوياته فى حالتها الدنيا .. وظلت حالة القرودية تسيطر عليه ..

ترك مقعده .. تمشى قليلا فى الغرفة .. توقف أمام النافذة .. أزاح الستارة قليلا وألقى نظرة إلى الطريق .. شاهد سيارات الضيوف تقف أمام المبنى والضيوف يهبطون منها .. خلع سترته وربطة عنقه وعلقهما على المشجب وثنى كمى قميصه .. وعندما وصل الضيوف كان يجلس فى مقعده ووجهه إلى النافذة وبين يديه صحيفة يطالعها وظهره نحو باب الغرفة .







مكان لشخصين فقط

مكان لشخصين فقط

صباح حار رطب .. ما أسوأ أن تختلط الحرارة بالرطوبة العالية .. ساعتئذ يتنفس الانسان بصعوبة وكأنه فى جوف البحر .. البحر .. هذا هو فى الطريق إليه .. بعد بضع ساعات تبحر السفينة فى رحلة أخيرة .. ما أكثر ما تختلف هذه الرحلة عما سبقها من رحلات .. فى كل مرة كان يعرف أنه عائد ولذلك كان يسافر بالطائرة .. ساعتان فقط ويتغير المكان والزمان أيضا وتبدو الفوارق فى التوقيت وفى الملابس وفى شكل الشوارع وفى أشياء كثيرة أيضا .. إختلاف ليس كبيرا ولكنه إختلاف على أية حال .. الرحيل هذه المرة نهائى ولذلك كان عليه أن يجمع من أمتعته ماله أهمية خاصة ويحمله داخل السيارة وفوق ظهرها ويسافر بالباخرة .. الرحلة سوف تستغرق يومين .. اللعنة .. لماذا كلف نفسه هذا العناء .. ما الذى يستحق أن يحبس الانسان نفسه وسط مجموعة من الناس لمدة يومين كاملين .. ماذا يمكن أن يكون لديهم ليقولوه له وماذا لديه ليقول للناس ... لا شيء لديه ولا يريد شيئا من أحد .. على الأقل فى الوقت الحاضر .. ليس مستعدا للحوار مع أى أحد .. لا يريد حديثا من أى نوع . ولكنه مضطر للحوار .. سيارته تكاد تدهم أحد المارة . إعتذر .. الاعتذار لا يكفى .. لابد من كلمة توبيخ .. تحملها بصبر .. زحام السيارات خانق .. كأنه فى سجن .. فى الطريق حفر .. لابد من أن يهدىء السرعة إلى أدنى حد .. عجيب أن يكون مدخل الميناء مزدحما بهذا الشكل .. كأن كل الناس مهاجرون .. مهاجرون أو مودعون لا يهم .. المهم أن يصل إلى الداخل .. ماأسرع ماتم كل شيء .. القرار وملحقاته .. قرار الرحيل ذاته والاستقالة وتأشيرة المغادرة والحجز له وللسيارة رغم صعوبة ذلك فى هذا الوقت من السنة . دهشة المدير من القرار

المفاجىء لم تمنعه فى النهاية من الموافقة على الاستقالة وانهاء خدماته كان يعرف كم هو جاد فى عمله ولذلك فقد أدرك أن الاستقالة لم تكن من باب التهديد أو المساومة للحصول على كسب من أى نوع . وعندما سأله عن السبب لم يزد على أنه قال :

– لدى أسباب خاصة لا أستطيع الحديث فيها .

لم يكن فى الواقع يستطيع أن يقول للمدير رغم صداقتهما .. لم يكن يستطيع أن يصارح أحداً أياً كان .. فقط كان يريد أن يرحل .. أن يهاجر .. لم يكن يعرف على وجه التحديد إن كان مهاجرا من الموقف أم من نفسه .. فقط شعر بأن المكان لم يعد يتسع إلا لشخصين إثنين فقط وليس هو أحدهما ..

رصيف الميناء .. خليط عجيب من البشر .. البحر ممتد ممتد فى البعيد .. عيناه تذهبان إلى حيث يتعانق البحر والسماء .. العناق .. ماأكثر ما عانقت أحلامه العديد من الصور .. الصور ماتزال حية نابضة .. وكيف لا تكون كذلك وهى الآن على بعد ميلين فقط منه .. يستطيع فى أقل من عشر دقائق ورغم كثافة المرور أن يعود إليها .. ولكن لا شيء يمكن أن يقنعه بالعودة .. حتى لو كانت عودته هى منتهى أملها .. فموقفها لم يعد له أهمية من أى نوع .. لقد كانت المعادلة قائمة بشكل دقيق ومتوازن .. ولقد أخل هو بالتوازن تماما .. وكان عليه أن يعيد التوازن بتصرف إيجابى .. المسألة شخصية جدا ولا دخل لأحد فيها .. المعادلة كانت ثلاثية ولا بأس فى أن تصبح ثنائية وأن يظل محور التوازن قائما .. أما هو فقد أصبح من الضرورى أن يكون خارج المعادلة وأن ينشيء بنفسه المعادلة الخاصة به مثلما حدث قبل ذلك ولكن بشكل نهائى هذه المرة .

ما أعجب ما تأتى به الأقدار .. هل هذا صحيح حقا ؟ تساءل .. وقال : أووه .. ما أعجب ما نفعله بأنفسنا .

سلم الباخرة يُرفع .. الباخرة تطلق صفارتها علامة الرحيل .. الصفارة تبدو كعواء مكتوم .. صوت يذكره بعواء الذئب قرب كوخ صياد عجوز بجانب جسر قديم فوق مصرف السر .. والكوخ شبه مظلم لا يكاد يبدد ظلامة الضوء الخافت المنبعث من شعلة خابية تتوسطه .. أووه .. ما أصعب أن يكون الانسان غريبا ووحيدا .. فى الماضى البعيد كان الإنسان وحيدا .. كان حرا .. فى الأصل كان الإنسان وحيدا حرا .. لكنه لابد أنه كان حزينا .. ماأبشع الإحساس بالحزن .. فى الأصل كان الحزن .. الباخرة تنساب وسط المياه والشمس أمامه نصفها غارق فى البحر .. أغنية خليجية تقول بدايتها: لا تودعنى ولا تكثر النوح .. قال:

هه .. ألم أقل لك أنه فى الأصل كان الحزن .. أليس أول شيء يفعله الانسان لدى مولده هو البكاء .. يبكى الانسان عندما يولد .. ويبكى الناس عليه عندما يموت .. ولكن لماذا يحزن الانسان على شيء يكون قد قرره واختاره بحريته .. قال .. لا معنى للحزن أو الندم .. يجب على العكس أن يكون الانسان سعيدا باختياره حتى وإن كان مؤلما .. وكل شيء فى الحياة إختيار .. حتى فى الحب .. هكذا قالت له منذ سنوات بعيدة .. يوم كانا بعد طالبين فى الجامعة والمستقبل بعد فى رحم الغيب .. كانت تعامله بلطف وود خاص .. وكان يشعر بأنه يتنفس الدنيا من خلال وجودها ولكنه رغم ذلك لم يستطيع أن يقول لها كلمة الحب التى كانت كفيلة بحسم الموقف .. ظل يدور ويدور .. يقترب حتى تبدو اللحظة الحاسمة موشكة على الحلول فإذا به يجد نفسه بعيدا بعيدا عنها .. وذات يوم كانا يتحدثان وقالت له:

لا أحب أنصاف الحلول .. أفضل أن يكون الانسان إيجابيا حتى مع إحتمال الخطأ على أن يكون سلبيا وان كان لا يرتكب أية أخطاء .. الايجابية هى دليل الحياة.

وذات يوم سألها :

– ما هى الايجابية فى الحب ؟

قالت له بعفوية وبساطة :

– أن يقول الانسان لمن يحب أنه يحبه .

سألها :

– حتى إن لم يكن واثقا من موقف محبوبه ؟

أجابت بنفس العفوية والبساطة :

– حتى إن لم يكن واثقا .. لأن إعترافه سيضع المحبوب فى مواجهة مع نفسه ، فإن كان الحب متبادلا لا تكون ثمة مشكلة .. وإن كان الأمر غير ذلك فيمضى كل منهما فى طريقه ودون أسف أو ندمْ .. أو يظلا صديقين إن استطاعا .

قال :

– دون أسف أو ندم ؟

أجابت :

– نعم .. دون أسف أو ندم .. فلا يكفى أن يحب الانسان .. وإنما يجب أن يكون محبوبا أيضا .. يجب أن يشعر بذلك ..

سأل :

– وهل لا بد من ذلك ؟

أجابت :

– نعم .. الحب وحده لا يكفى .. يجب ان يكون هناك تعبير إيجابى عنه .. فإن لم يحدث هذا التعبير يكون الحب مجرد رغبة عاجزة لا قيمة لها ..

فالحب ليس مجرد حالة داخلية خاصة وانما هو علاقة متبادلة بين طرفين ويجب أن يعرف كل طرف موقف الطرف الآخر .

كانت العبارات التى استخدمتها ايجابية شديدة الايحاء .. ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يستوعبها تماما .. وحتى عندما استوعبها لم يستجب لها الاستجابة اللازمة .. توقع أنه ما دام هذا موقفها ورأيها فيجب أن تعلن أن كانت تحبه أم لا تحبه .. ظل مترددا .. حتى هنا بعد أن تخرجا من الجامعة ظل مترددا .. لم يدرك الا فى وقت متأخر جدا أنه كان يجب عليه ان يبدأ .. وأنه لا ينبغى أن ينتظر أن تكون هى البادئة .. وعندما تحرك فى الاتجاه الصحيح كان الوقت قد تأخر .. ففى صباح أحد الأيام فوجىء بدعوة تصله لحضور عقد قرانها .. كانت المفاجأة أن الدعوة جاءنه من زميل لهما كان يسبقهما فى الدراسة وكان يسبقه فى العمل بنفس الشركة لم تتح له الفرصة ليسأل كيف ومتى حدث ذلك .. كان الأمر قد أصبح واقعا ولم يعد ثمة سبيل لتغييره .

البحر يحتضن السفينة .. تماما مثلما ظل لفترة طويلة يحتضن صدره صورتها حتى بعد ان تزوجت .. لم يكن يملك سوى ذلك .. كان زوجها ايجابيا .. وفى الوقت المناسب اتخذ خطوته دون تردد .. وكانت هى ايجابية أيضا .. وافقت .. وكان ذلك طبيعيا .. لم يكن ممكنا أن تمضى عمرها كله تنتظر كلمة قد لا تأتى أبدا .. وعندما دعى لزيارتهما بدا له الأمر غريبا .. كان الوضع الصحيح فى رأيه ان يكون البيت بيته هو ولكنه كان مجرد ضيف .. مجرد صديق وزميل .. هكذا كانت المعادلة الثلاثية .. هو جزء منها دون ان يقصد ولكنه جزءغير مؤثر .. هو مجرد علامة عشرية وليس رقما .. مجرد علامة عشرية تفصل بين الأرقام ويمكن الاستغناء عنها بأى عملية حسابية .. معادلة غريبة وغير مريحة لكنها واقع لم يكن يستطيع تغييره بعد أن أضاع كل الفرص التى أتيحت له .. وقد أراد ذات يوم أن يتأكد من موقعه داخل المعادلة أو على الأقل أن يعرف الذى حدث بالضبط فسألها :

– هل تحبينه ؟

أجابت بعفويتها التى لم تتغير :

– نعم .

سأل من جديد :

– كيف ؟

أجابت :

– هكذا .

قال :

– هذه اجابة غير واضحة .

سألت هى هذه المرة :

– ما هو الحب بالضبط ؟

لم يجب .. قالت :

– أرأيت .. ومع ذلك دعنى أختصر الحديث .. أنا أحب بطريقتى الخاصة .. والحب هو فى النهاية شيء خاص جدًا .. إنه ليس تصميما هندسيًا لعمارة يلتزم فى بنائها بمقايس ثابتة .. الحب شيء خاص وشخصى جدا .

– ولكن .

– دعنى اكمل . الحب بمعناه المراهق لم يعد موجودًا فى حياتى .. الحب ليس هو السهر وحساب النجوم .. الحب كما أعرفه هو بناء .. بناء حياة .. بناء أسرة .. بناء بشكل ما .. ونحن الآن نبنى حياة وأسرة .

– وهل أنت سعيدة ؟

سأل بإلحاح .. وأجابت :

– السعادة نسبية .. وهى أيضا مسألة شخصية جدا .. وبمقاييسى الخاصة فأنا سعيدة .. وولدنا الصغير يملأ حياتنا بهجة .

دائما الامور شخصية .. ودائما لديها مقاييسها الخاصة .. ما أروع أن تكون للانسان مقاييسه الخاصة حتى وان اختلفت مع المقاييس العامة .. انها تصنع للانسان عالمه الخاص .. ذلك العالم الذى يستريح الانسان داخله مهما كانت مصاعب الحياة .. تمنى أن يكون له عالم خاص بهذا القدر من الوضوح والتحديد .. أن يصل إلى هذه الدرجة من وضوح الفكر .. أن يصنع معادلته الخاصة .. أن يخرج من هذه المعادلة الثلاثية ويكوّن لنفسه معادلة خاصة يكون فيها رقما صحيحا وليس مجرد علامة عشرية .. ولذلك رحل .

السفينة تواجه نَوّةً بحرية والموج يتلاعب بها وهى تميل فى مختلف الاتجاهات .. تماماً مثلما اضطربت مشاعره فترة طويلة .. لم يكن خروجه من

المعادلة أمرا سهلا .. ظلت هى مع استحالتها النموذج الوحيد الذى يريده فى المرأة .. ولذلك فان أى نموذج آخر لم يلق منه اهتماما .. ولذلك لم يتزوج ولم يفكر فى الزواج .. ولم يكن يستطيع فى نفس الوقت أن يستمر فى اللعبة .. وعندما واتته فرصة للرحيل رحل .. جاءه عرض للعمل فى الخارج فوافق على الفور .. استقبلت النبأ بحياد تام وتمنت له التوفيق .. تمنى أن تقول كلمة أو تظهر اشارة واحدة توحى برغبتها فى بقائه ولكن شيئا من هذا لم يحدث .. تساءل فى مرارة :

— ألا يمكن أن يكون قد بقى شيء .. حتى ولا مجرد ذكرى تافهة .
وظل سؤاله معلقا بلا اجابة ..

رأى فى السفينة وجها ظن أنه يعرفه .. وتأكد ظنه عندما اقترب منه .. كان صاحب الوجه زميلا له فى الدراسة بالمرحلة الثانوية واختار كل منهما طريقا مختلفا .. تخرج هو مهندسا معماريا وعمل زميله ضابطا بحريا .. وفرقتهما السنين .. وها هما يلتقيان مرة أخرى لا على أى أرض .. تبادل العناق والقبلات .. دعاه صديقه إلى كابينة القيادة .. كان قائد السفينة يتعامل مع المؤشرات والآلات والرجال والبحر كذلك بثبات وقوة .. قال : ما أروع أن يوجه الانسان الأنواء بقلب شجاع .. هكذا واجه مصاعب الفترة الأولى .. وكان يعجب من أمر نفسه .. كيف يواتيه كل هذا الجلد وقد تصور أنه لا يمكن أن يعيش بعيدا عنها .. ولكنه استطاع .. ومثلما الأرض عندما تجف .. تموت فيها الاشجار وتذوى الزهور .. هكذا أصبحت حياته .. جافة خالية من المعنى .. مسحة الحزن الدائمة لا تفارق وجهه .. وظن أنه نسى .. ولكن فى أحد الايام تلقى برقية تقول باختصار : نصل بالرحلة رقم ... بتاريخ ... أصابته الدهشة وتساءل :

— نحن من ؟ ما هى القصة ؟ ما هو هدف الزيارة ؟

ظن ان زميله قادم فى مهمة عمل سريعة وكاد ينسى .. ولكنه تذكر فى الوقت المناسب وفى الموعد المحدد .. ذهب إلى المطار .. وكانت المفاجأة أن زميله قادم للعمل وهى معه .. لماذا تذكره زميله هو بالذات رغم انقطاع الصلة بينهما منذ سنوات ؟ أى عبث هذا الذى يحدث .. ما هو ترتيب المعادلة هذه المرة ؟ لم

يكن أمامه للاختيار .. لقد عادت اطراف المعادلة للالتقاء .. ولم يعد مهما ان كان رقما صحيحا أو مجرد علامة عشرية .. المهم أنه أصبح فى قلب المعادلة ويجب أن يكيف نفسه مع هذا الوضع الجديد القديم .. ودون أن يقصد شعر بأن الأرض التى تعمد جفافها قد بدأت ترتوى من جديد دون قصد .. وأن الأشجار الخاوية تنتصب من جديد والبراعم تتفتح .. وشعر بالخوف .. أدرك أن شيئا ما يستيقظ داخله ولا يستطيع السيطرة عليه .. وان التجاعيد التى ارتسمت على وجهه بفعل قسوته على نفسه تكاد تنبسط .. وخاف أكثر .. كان يخشى ان تختل المعادلة .. وذات يوم فاجأ نفسه بالسؤال :

– أيمكن أن يكون الحب مرة ثانية ؟

لم يستطع ان يجيب .. كان السؤال مؤلما .. وكانت الاجابة عليه أكثر إيلاما .. ولكن السؤال ظل معلقا ..

هدأ البحر وأصبح كالبساط .. تماما مثلما كان البحر عندما خرجوا جميعا فى نزهة .. لم يكن فى ذلك اليوم راغبا فى الذهاب رغم الحاح الأصدقاء .. كان يشعر بأن الجدول الذى ارتوت منه أحساسية يتحول تلقائيا أو بقوة غير مفهومة إلى سيل يكاد يجرفه أمامه .. ومع ذلك لم يستطيع ان يقدم للأصدقاء سببا مقنعا للاعتذار .. كان اليوم يوم عطلة فى جو حار يهرب فيه الناس إلى البحر باعتباره المتنفس الوحيد .. وهناك لعبوا وجروا وسبحوا ولكنه كان يشعر بأن داخله خاو مثل بيت مهجور ..

على الشاشة فى السفينة كان يعرض فيلم عن مصارعة الثيران .. تلقى الثور طعنات عديدة من مساعدى الماتادور« المصارع » .. بعضهم كانوا راجلين والبعض على صهوات الجياد .. يدخلون الحلبة بترتيب خاص وطقوس خاصة .. ثم يدخل الماتادور وهو الشخصية الرئيسية فى المصارعة .. وتستمر مناوراته ومناوشاته مع الثور حتى تأتى لحظة الحقيقة .. تلك اللحظة التى تحدد النهاية .. نهاية الثور أو نهاية المصارع .. فاذا نجح المصارع فى غرس نصله فى نحر الثور هلل الجمهور .. أما إذا تمكن منه الثور فقد يكون ذلك نهايته هو .. لحظة الحقيقة هى لحظة الفصل .. ويجب ان يكون الإنسان إيجابيا .. والإيجابية فى الحب ان يقول الإنسان لمحبوبه انه يحبه .. أن يضعه فى مواجهة نفسه .. وهكذا قال الكلمة التى **احتبست داخله** سنوات طويلة .. كانا يجلسان على الشاطىء وبقية الأصدقاء

مشغولون إما بالسباحة أو باعداد الطعام .. وبدا كأنه يريد أن يحدثها فى أمر عادى ولكنه وجد نفسه يقول لها :

– أريد أن أقول لك شيئا قديما .

أثار انتباهها فاعتدلت بينما كان ابنها الصغير يجرى قريبا منها قال :

– لقد أحببتك دائما ..

فوجئت .. علت الدهشة وجهها .. كأنما هى تتذكر فجأة قصة قديمة .. قصة لا تخصها ولكنها كانت تعرف كل تفاصيلها ثم نسيتها وجاء من يذكرها بها بشكل مفاجىء ..

واصل الحديث :

– وما زلت ..

لم تجب بشىء .. نادت ابنها .. أجلسته فى حجرها وداعبته فى صمت .. تلقى الرسالة .. فهمها واستوعبها تماما هذه المرة .. غرس المصارع نصله فى رقبة الثور .. انتهت المصارعة .. تمت اللعبة وأضيئت الأنوار فى قاعة العرض .. لم يعد ثمة سبب لأن يبقى أحد .. لا المصارع ولا الثور ولا أحد من المتفرجين .. لم يعد ثمة دور للمشاعر أو المواقف الشخصية .. فموقف كل انسان يخصه وحده دون أى أحد آخر .. وفى لحظة الحقيقة حلت المعادلة حلا نهائيا ولم يعد ممكنا إعادتها بنفس الترتيب .. بدأ كأنه يقف على حافة جبل انشق نصفين فلا هو بقادر على أن يرقعه ولا ان يعيد بناءه من جديد . اختلت المعادلة ولم يعد ممكنا أن يعاد بناؤها على أساس ثلاثى .. لم يعد ثمة مكان إلا لاثنين فقط .. تماما مثل لعبة الكراسى الموسيقية يجلس من يسبق والخاسر عليه ببساطة أن ينسحب .. وهكذا اختلق سببا للعودة إلى المدينة وبدأ يرتب حاجياته . لم يعد له مكان ..

فى مكانه على ظهر السفينة نقل بصره بين البحر والسماء .. كانت أنوار السفينة تمتد قليلا على المياه ثم تذوب فى ملوحة البحر .. بينما تتألق فى البعيد نجوم متناثرة تدور دوراتها الأزلية .. بعيدا بعيدا عن معادلات البشر .. ردد فى هدوء :

– لقد تأخرت مرتين .




الخوف



الخوف

استلقى عطوة النمس على الطوار خائر القوى ممزق الثياب مبلبل الفكر .. ألقى نظرة بائسة على عربة الكشرى التى يتكسب منها .. فهاله منظر الاطباق المحطمة وحبات الارز والعدس والمكرونة المبعثرة فى كل مكان .. أدرك أنه قد وضع نفسه بلا سبب معقول فى ورطة لا خلاص منها ، فماذا سيفعل الآن وفى البيت ذئبة مستعدة للعراك دائما وهو هذه المرة ليس لدية سبب للاعتذار .. فهو على خلاف ما يوحى به اسمه .. رجل مسالم لا له ولا عليه ، وهو كما يقول ابناء الحارة يمشى بجوار الحائط .. لم يعرف عنه يوماً أنه تشاجر مع أحد أو تشاجر هو مع أحد ، حتى عندما يهينه أحد كان كل ما يفعله هو أن يردد «سامحك الله» ويمضى فى حال سبيلة . بعض الناس كانوا يشعرون بالخجل من أنفسهم فيعتذرون له ، ةالبعض كانوا يتمادون فى الإهانة .. وكلما تمادوا فى الإهانة تمادى هو فى التسامح .. ولم يكن ذلك فى الواقع راجعاً لضعف ذاتى ، على العكس كانت له قوة عظيمة .. ولكنه كان يؤمن بأن « المسامح كريم » ..

لكن عطوة النمس لم يستطع فى ذلك اليوم أن يطبق القاعدة الذهبية فى حياته .. فى هذا اليوم مرت عصبة من الشبان الغرباء عن الحارة .. توقفوا أمام العربة .. تحدثوا طويلا قبل ان يطلبوا بعض أطباق الكشرى .. قدم لهم كل ما طلبوه .. طلبوا كميات اضافية فقدمها لهم . ولم يكن يعرف القراءة ولكنه بحكم العادة كان يعرف كيف يحسب جيداً ، وكان يعرف كم طبقاً أخذوا وماذا يجب ان يدفعوا .. لكنهم غالطوه ، وكان مستعداً للتسامح والتنازل عن جزء من

قيمة ما أكلوه .. بل عن كل القيمة ، فقط لو أن أحدهم اعتذر بأنهم ليس معهم نقود .. ولكنهم لم يفعلوا .. تحرشوا به فصبر .. جذبه أحدهم من جلبابه فأزاحه باشاحة بسيطة من يده ، ولكن جن جنونه عندما اتهموه باللصوصية ، كل شيء الا هذا .. اهتاج وضربهم ، كانوا عصبة وتكاثروا عليه .. ولكنه لم يأبه بكثرتهم .. لم يكن يشغله سوى أن يحافظ على عربة الكشرى فحاول أن يجذبهم بعيداً .. لاحظوا ذلك فبدأوا يكسرون الاطباق ويبعثرون الطعام .. ازداد هياجه .. ضربهم برأسه ويديه وقدميه .. أصيب منهم من أصيب وولوا جمعياً هاربين .. وفى البداية حاول ابناء الحارة التدخل ، ولكنه طلب اليهم الابتعاد لان المسألة بسيطة .. وكان يشعر فى الواقع بأن المسألة مسألته هو شخصياً ويجب الا يزعج أحداً وأن يصفى الموقف بنفسه.

هربوا وبقى وحده يشاهد آثار المعركة .. جلس حزيناً كاسف البال .. لم يسعده أنه . ضربهم .. وسأل نفسه ان كان ثمة ضرورة لكل ما حدث .. وأجاب بنعم .. ولكنه مع ذلك ظل حزيناً ولم يفرحه أن جاءه من قال له « كنت بطلاً .. لقد لقنتهم درساً » انتهى الامر وأصبح عليه ان يواجه حنّونة الذئبة المستعدة دائماً للعراك كان يعرف أن ذلك الأمر لا مناص منه فهى تتشاجر معه للاسباب الهامة والأسباب التافهة على حد سواء .. وحتى عندما لا يكون ثمة سبب كاف فانها تفتعل أى سبب .. وتظل تستفزه لكى يضربها .. لكنه لا يضربها فتضربه هى ويظل صامتاً وتضربه .. ويظل كل منهما حريصاً أن لا يسمعهما أحد ولا يتدخل بينهما أحد .. وتظل المعركة بينهما قائمة حتى ينهد حيل حنّونة فتجذبه إلى الفراش .. وبعد قليل ينام كل منهما وقد انطفأت فورته .. وفى الصباح يستيقظان وقد نسى كل منهما ما حدث ، تعد هى كميات الكشرى اللازمة ، ويقود هو عربته إلى أول الحارة حيث اعتاد على امتداد سنوات .

تدخل بعض شباب الحارة فجمعوا الاطباق السليمة ورتبوا العربة وكنسوا حطام الاطباق والكشرى المبعثر على جانب الطريق .. ونصحوه بأن يعود للبيت .. ولكنه لم يكن راغبا فى ذلك .. لم يكن يريد الشجار فتكفيه مشاجرة واحدة هذا اليوم .. كان صوت المذياع يأتيه من المقهى القريب وصوت المغنى يردد « فطريقك يا ولدى مسدود » .. لعن أبا الدنيا وقال « مسدود .. مسدود » .. وهب واقفا يدفع عربته أمامه .. لم يكن يشعر لا بالزهو ولا بالخجل ولكن بالترقب والتحفز .. قال إن العمر واحد ولا يموت الانسان

مرتين .. ولكنه لاحظ شيئا استرعى انتباهه .. فرغم أن أحدا لم يتبادل معه كلمة إلا أنه شعر فى عيون الناس بنظرات مختلفة عن تلك التى كانوا ينظرون إليه بها فى السابق .. كان فى النظرة الجديدة تقدير لقوته وكأن الناس قد اكتشفوا لاول مرة أنه قوى ولم يعد فى نظرهم مجرد « زوج المعلمة » وهو اللقب الذى اعتادوا أن ينادوا به « حسنة أو حنونة » وهو الاسم الذى اشتهرت به بعد ان توقفت عن بيع ارجل المواشى ومكثت فى البيت . وقد اكتسبت حنّونة هذا اللقب بقوة الذراع .. فقد كانت طفلة يتيمة تربت فى بيت خالتها وسط نصف دستة من الصبيان .. واعتادت أن تصارع حتى تأكل .. وعندما كبرت قليلا بدأت تكسب قوتها من بيع أرجل المواشى المذبوحة .. وبرغم جمالها وأنوثتها كانت شرسة إلى حد ان أحداً لم يفكر فى الزواج منها ، حتى أبناء خالها كانوا يهابونها .. وكان كل من يفكــر فى جمــالها يــردد لنفسه « هل يمكن آن .. أتزوج جاويش ! » ... ولكن عطوة النمس لم يكن يهابها وتقدم لخطبتها من خالتها وكانت فرصة للخالة لكى تتخلص منها ومن مشاغبتها ومشكلاتها .. وفى وقت قصير تم كل شى وأصبحت حنّـونة معـه فى غرفة على سطوح أحد بيوت الحارة .. ومنذ ذلك اليوم وهما فى معركة متصلة .. لحظات الصفو ساعات النوم وتناول الطعام ، وحتى النزهات القليلة على شاطىء النيل تبدو كلها كاستراحات بين الخناقات المستمرة .. وهو بقوته وهى بأنوثتها وشراستها .. وكان يعرف أنه يحبها ويشعر بأنها أيضا تحبه .. ولكنه لم يستطع ان يجد تفسيراً لهذا العراك الدائم .. وذات يوم سألها : « هل أنت دائمة الغضب لأنى أبقيتك فى البيت ومنعتك من البيع ؟ » قالت : « لا .. هذا يسعدنى .. فكم تمنيت ان يكون لى رجل يعولنى وأن اتخلص من عزاب كل يوم .. والحمد لله لاينقصنا شىء » .. « لماذا إذا كل هذا الشيجار ؟ » .. سأل من جديد .. واجابت : « أراك ليناً دائما والدنيا لا يعيش فيها إلا القوى .. فنحن أسماك فى بحر .. الكبير يأكل الصغير » قال : « ولكن أحداً لم يهضم لنا حقا » .. قالت : « ولكننا فى النهاية لا نعيش » .. ولم تتكرر هذه المناقشة مرة أخرى .. عادت حياتهما تمضى على نفس الوتيرة .

اقترب من البيت فازدادت دقات قلبه عنفاً .. تهيأ لمعركة كبرى .. رسم فى ذهنه تفصيلات المعركة .. وتذكر نقطة البداية المأثورة « ليلتك مثل وجهك » .. ثم تبدأ المعركة .. وعندما وصل إلى البيت أوقف العربة بجوار الحائط .. أحكم رباط عجلاتها .. صعد السلم بلا كلمة وانتابته حالة لا مبالاة بما

سوف يحدث .. وعندما أكمل صعود السلم وجدها أمام باب الغرفة .. كانت صامتة لا ينبىء وجهها عن أى أنفعال .. أوجس شرا .. دخل الغرفة فدخلت وراءه .. ظل واقفا ينتظر وظلت واقفة صامتة .. انتابه القلق .. استدار نحوها وانتظر ان تقول شيئا ولكنها ظلت صامتة .. استفزه الصمت .. قال لها : « تعاركت وتكسرت الاطباق وتمزقت ملابسى » .. فأجابت قائلة : « أعرف » ..

– وإذا ؟

– لا شيىء .

– كيف لا شيء ؟

– ما ضاع يمكن تعويضه .. المهم ان تكون بخير .

فاجأه الموقف إلى حد الذهول .. لم يدر ماذا يفعل وبطريقة عفوية مد يده إليها فمدت يدها إليه .. اختفت الشراسة والعنف ولم يجد سوى أنثى بحاجة إلى حماية .. جذبها اليه برفق فاندفعت إلى صدره .. وعندما ضمهما الفراش ، وكاد النوم يغلبه شعر برأسها على صدره وكانت تبكى .. تبدد النوم من عينيه وسألها :

– أهناك شيء ؟

– قالت نعم .

– ماذا ؟

– الآن لم أعد أخاف .. الآن أشعر بأن ثمة من يحمينى .. من الناس .. ومن نفسى .





العيون

العيون

تبدد الوهج وانطفأ البريق وخمدت النار .. لم يبق سوى الرماد والظلمة والبرودة .. وماأقسى أن يعيش الانسان فى الظلام وان تسوط البرودة عظامه وان يتنفس فتمتلىء انفه برائحة الرماد ... تحرك مذهولا فوجد نفسه فى فراغ .. نادى بأعلى صوته فلم يسمع أحد.جاءه صوت يقول : لا ينقذك الا محيى العظام وهى رميم .. صاح بفزع : أنقذنى .. اختفى الصوت وحلت البرودة وتكثف الظلام واحاطت به رائحة الرماد .. شعر بالرغبة فى البكاء فبكى .. كان فى الماضى يخجل من فكرة البكاء .. كان يقول ان البكاء للأطفال والنساء لكنه هذه المرة قال لم يبقى شيء نخاف عليه .. لقد انقضى كل شيء .. وبكى أكثر من النساء والأطفال .. لم يرحه البكاء بقدر كاف فأعول .. ازداد عويله .. تردد العويل فى الظلام تردد أصداء مخيفة .. أصوات ذئاب شرسة جائعة تحوطه من كل مكان وتنهشه .. صاح .. الذئاب .. الذئاب .. لم يسمعه أحد .. ولى مدبراً فى الظلام .. تعثر فى الرمال الرطبة خارت قواه لكنه استمر يحاول ان يعدو .. ان يبتعد .. لكن اصوات الذئاب لم تتركه كانت تمضى فى اثره .. عاوية حيناً ، مولولة حيناً .. وفى كل الأحيان كانت تنهشه .. صاح : ارحمونى .. لم **يسمعه** احد .. تردد صوته فى الخواء .. قال : لم اكن اقصد ..لم اكن اريد .. ولكنه عبثاً كان يصيح .. لم يكن ثمة أحد سوى الرمال والظلمة والبرودة وأصوات الذئاب ...

رأى بصيصاً من النور فى البعيد المجهول .. باللهاث والعرق جرى اليه .. جرى وانكفأ على وجهه فى الرمل وقام ليقترب .. ابتعد النور فجرى اكثر .. اقترب من النور اكثر فتوقف .. كان وجهها .. بالتحديد كانت عينها .. لم تقل شيئاً .. ظلت صامتة .. حدقت فيه بلا معنى وانصرفت .. أضاءت الدنيا حوله فجأة ورأى نفسه فى حصار من العيون .. عيون لها حراب .. تغرسها فى جسمه .. فى كل مكان من جسمه .. صاح : لا تذهبى .. سامحينى .. ولكنها تركته وذهبت .. اختفت .. اختفى النور وبقيت العيون .. ألف ألف عين .. لا تتكلم ولكنها تنهش .. صرخ متوسلا .. ارحمونى .. ظلت العيون تنهشه فى صمت .. ميز بين العيون عيونًا طفولية بريئة .. لا تقول شيئًا .. ولا تفعل شيئًا .. تنظر فقط بطريقة محايدة .. قتلته نظرات الغباء فيها فصاح .. قولوا شيئا .. انهشونى .. اضربونى .. ولكن لا تظلوا هكذا صامتين .. مجرم أنا ولكن لم أكن أريد .. لم أكن أقصد . ولكن العيون الطفولية ظلت صامتة تنظر إليه بلا فهم .. بلا اتهام .. بلا حب أيضاً . انكفأ على نفسه .. احاط رأسه بيديه .. تسللت العيون إلى حجره ترقبه من كل مكان .. تعريه وتتسلل إلى داخل ملابسه .. تتسلل فى مسامه .. تتسرب إلى خلاياه .. تختلط بدمه بالهواء الذى يتنفسه .. اختنق .. خرجت أنفاسه حشرجات .. وجد من يهزه برفق ثم بعنف .. كانت زوجته .. وكان فى سريره .. افاق .. سألته زوجته بانزعاج :

- اثمة شيء ؟
- لا .. لا شيء ..
- كيف لا شيء وانت تصرخ وتحشرج ؟
- قلت لك لا شيء .. مجرد كابوس .
- عجيب .. مع انك لم تثقل فى العشاء .
- لست ادرى لماذا .. نامى .

نامت .. بهدوء نامت .. وبهدوء وضعت ذراعها حول عنقه وغطت فى النوم وكأنها تعيش فى عالم وردى بلا هموم .. هل معقول ان تكون هكذا .. ان تكون غافلة بهذا القدر عما يجرى .. الا تعرف انه غارق حتى اذنيه فى قصة حب من وراء ظهرها .. أم ترى ان هذه البراءة هى شعار للتمويه على خطة لافساد كل شىء .. أم انها تعيش قصة مماثلة وتكون العين بالعين فلا غالب

ولا مغلوب .. جن من الفكرة .. فهب جالساً فى السرير ملقياً بذراعها .. ايقظتها الحركة .. فتحت عينيها فى تثاقل وتساءلت :

– ماذا بك الليلة ؟

– قولى لى .. ماذا تخفين عنى ؟

– اخفى عنك .. ماذا أخفى عنك ؟

– لا بد أنك تخفين شيئاً ؟

– لا .. أنت الليلة فى حالة غير طبيعية ..

– لا أنا طبيعى جداً ..

– إذن ماذا تريد ؟

– أريد أن أعرف ماذا تخفين ..

انفعلت على غير العادة .. صاحت فيه ..

– أخفى ماذا ..؟ هل جننت أم ماذا ..؟

صدمته الكلمات .. أفاق كأنما ألقى به فى ماء مثلج .. اعتذر لها .. تقبلت الاعتذار فى هدوء .. ونامت .. حاول ان ينام .. لكنه خاف .. فظل مستيقظاً .. انتابه هم عظيم نظر إلى الوجه الذى الفه سنوات طويلة .. رأى شريط من الذكريات المتشابهة كأنها كلها نسخ .. مئات النسخ .. الوف النسخ من كتاب واحد .. مطبوع بعناية ولكنها فى النهايسة نسخ متكررة لا جديد فيها .. اللقاء والزواج ثم الانجاب مرة ومرتين واربع مرات ولم يكن ثمة شيء يكسر هذه العادات المألوفة ... حتى كان اللقاء ...

كانت سيدة مطلقة – جاءته فى المكتب لانهاء بعض اعمالها .. شعر فى اللحظة الأولى بانجذاب غريب نحوها .. لم يكن يصدق فى البداية وانكر ذلك على نفسه .. انشغل فى عمله وبيته وأصدقائه فنسى الأمر .. ولكن عندما جاءت إلى المكتب مرة ثانية عاوده الانجذاب .. لم يكن فيها شيء غير عادى .. ولكنه على أى حال شعر بأن فيها شيئا يكسر الرتابة .. شيئا لا يدريه بالتحديد .. وقد اجفل عندما زارت المكتب مرة ثالثة دون سبب وجيه وشعر بأنها إنما ذهبت لتراه .. ولم يكن شعوره كاذباً فقد اكدت ذلك فى زيارات أخرى كانت تختلق لها الأسباب .. ومع تعدد مرات ذهابها إلى المكتب أصبحت رؤيته لها عادة جديدة ولكنها ليست عادة مملة .. وإنما هى عادة يترقبها ويحرس عليها ايما حرص .. ولذلك فقد غير كثيراً من عاداته الأخرى .. اصبح مثلا يهتم بانتقاء ملابسه

وحلاقة ذقنه يومياً .. وتلميع حذائه كل صباح وهى عادات لم يكن يهتم بها كثيراً .. وعندما سألته زوجته يوما عن سر هذا التغير أجابها بأنه فى سبيله ليترقى إلى وظيفة أعلى وهذا يقتضى الاهتمام بمظهره .. اقتنعت الزوجة ولم تعقب .. ولكنه فى تلك الليلة لم ينم جيداً .. فقد أقلقه أحساسه بالكذب وهو أمر لم يألفه .. كما أزعجه بقدر أكبر قدرة زوجته على التصديق ، وتساءل فى تلك الليلة ان كانت هذه قدرة على التصديق أو أنه نوع من التغابى هدفه تجنب إثارة المشكلات .. واجاب على سؤاله بتساؤل آخر يقول : وهل من المعقول ان تفرط زوجة فى حياتها بهذه البساطة ؟..

وتكررت الزيارات .. وذات يوم فاجأه صديق قديم بملاحظة كان حريصاً على أن تبدو عابرة قال : ان هذه الزائرة التى أصبحت زياراتها يومية تستهدف بالتأكيد اصطياد فريسة من بين الموظفين .. وخراب أحد البيوت .. وانه لا يطمئن لوجودها ..

ولم يزد على هذا وتركه ومضى .. تصبب عرقاً عندما أكتشف أن ثمة من يراقب ويعرف .. أصبح بعد ذلك أكثر حساسية مع زملائه .. ولم يمض ذلك النهار حتى تنفس الصعداء لدى انصرافه .. فقد كان يشعر أنه محاط بالعيون .. عيون زملائه بدت كأنها عدسات صماء تسجل حركاته .. مصابيح الغرفة بدت عيوناً تطل عليه .. حتى ادراج المكتب المفتوحة بدت هى الاخرى كأنها تراقبه .. وادرك وهو يمضى عائداً إلى بيته انه لا بد أن يراها خارج المكتب .. ولكن كيف .. ؟ ظل السؤال يطارده حتى صباح اليوم التالى .. جلس متوتراً على غير عادته .. رأى صديقه القديم فتجهم .. سأله الصديق : مالى أراك اليوم عابساً .. أحدث شيء .. ؟ أجاب فى عصبية :

- كلا ..
- ما الخطب اذن ؟
- لا شيء.قلت لك لا شيء .

وخجل من نفسه بعد ذلك لأنه لم يتعود أن يسيء إلى أحد ولا حتى بمجرد الاشارة . ولكنه مع ذلك لم يزايله احساسه بالتوتر .. فقد تأخر حضورها عن موعدها المعتاد .. وتطامن عندما وصلت .. ولكنه كان فى نفس الوقت بادى

الحرج وهو يحدثها . لاحظت ذلك وسألته عن السبب . قال :
- أشعر أن الجميع هنا يلاحظون كثرة ترددك على الإدارة .
- أو لا يعجبك هذا ؟
- بلى .. ولكن ..
- ولكن ماذا ؟
- ولكن لاأريد أن تمسك كلمة تقال من هذا أو ذاك هنا أو هناك ..
- اذن فأنت لاتريدنى أن أحضر .. ؟
- نعم ..
- إذن مع السلامة ..
- انتظرى لحظة .. أنت لم تفهمينى جيداً .. أريد أن أراك .. ولكن ليس هنا ..
- أين اذن ؟
- فى المكان الذى تختارينه ..
- أنا لاأحب أن يرانى أحد معك فى مكان عام .. فأنا مطلقة ولاأحب أن يساء الى سمعتى .
- ولكن الادارة هنا هى ايضاً مكان عام ..
- ولكنه مكان يمكن اختلاق ألف سبب للتواجد فيه .. أما فى كازينو أو فندق أو بنسيون فإن الأمر يختلف ..
- ما الحل إذن ؟
- لاأظنك مغامراً ..
- كيف .. ؟
- هل أنت مستعد لأن تزورنى فى بيتى ؟
- ألا تخافين على سمعتك ؟
- من أجلك لاأخشى شيئاً ..
- ومن اجلك اذهب إلى أى مكان .

أعطته العنوان وانصرفت .. وظل مذهولا مما حدث .. هل هذا ممكن ؟ بهذه السرعة .. كيف يمكن أن ترفض مقابلته فى مكان عام وتقبل ان تلقاه فى بيتها .. وماذا بعد هذه الخطوة .. تنازعته الهواجس .. ولم يكن مع ذلك يستطيع أن يتوقف. بدا الأمر كأن سيلا عرماً لم يكن أمامه سوى سد ترابى هش وقدجرف

السيل السد واندفع فى طريقه ولا يبدو ثمة مايمكن أن يوقفه .. ولم يعد ثمة مجال للتساؤل عن خطأ أو صواب مايحدث .. وهكذا ظل يتعجل انتهاء يوم العمل .. وماكادت الساعة تبلغ الثانية حتى مضى يستبق الوقت الى أن اقترب موعد اللقاء .. أرتدى ملابسه بعناية ومضى فى طريقه خارجاً .. حاول أن يخفى اضطرابه وأن يبدو طبيعياً .. كانت زوجته تساعد ابنتهما الكبرى فى استذكار دروسها .. سألها ان كانت تريد شيئاً من الخارج فأجابت « نريد عودتك سالماً » .. ولم تعقب .. تنفس الصعداء عندما اصبح خارج البيت شعر بأنه قد أصبح حراً طليقاً وأنه بعد دقائق سوف يرتاد عالماً جديداً .. حقاً لقد كانت له فيما مضى من الزمن بعض العلاقات ولكنها كانت كلها علاقات مؤقتة .. ولم يكن فى أى منها طابع المغامرة والتحدى والخروج على المألوف فى حياته .. كانت مجرد علاقات من النوع الذى يستطيع أى شاب أن يقيمه بمقابل زهيد .. وغير المتعة الحسية المؤقتة لم يكن فى هذه العلاقات مايثير البهجة ولكنه الآن مقبل على نوع جديد مختلف من العلاقات .. مختلف كثيراً عن كل ماسبق .. حتى عن علاقته بزوجته .. تلك العلاقة التقليدية التى يكونها كل الناس والتى سرعان ماتكتسب طابع العادة وتفقد كل بهجة .. وهو الآن فى الطريق الى الضاحية التى تقيم فيها .. ومن زجاج سيارة الأجرة التى يستقلها تعرف على المكان .. لقد اصبح قريباً .. ولم يشأ أن يلفت إنتباه أحد فاستوقف السيارة بعيداً نسبياً ونقد السائق أجره وقرر أن يكمل على قدميه حتى يتعرف على البيت دون أن يحتاج الى سؤال أحد .. كان الشارع هادئا ونصف مظلم .. وكانت أعمدة الإنارة فيه متباعدة نسبياً .. اقترب من البيت وتحولت خفقات قلبه الى طبول عنيفة تدق داخل صدره وتصل أصداؤها الى أذنيه .. مر بقصر قديم كان حارسه يجلس امام بوابته وامامه مذياع صغير .. ومن المذياع كان ينساب صوت ندى .. وتناهى الصوت الى سمعه « وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك » .. تجاوزت الكلمات حواجز الأذن الحسية ومضت فى طريقها الى خلاياه الحية .. تساءل فى دهشة لماذا يسمع هذا الكلام فى هذا الوقت على وجه الخصوص ؟ ولماذا جلس حارس القصر فى هذا الوقت على وجه الخصوص ؟ ولماذا فتح المذياع على هذه المحطة على وجه الخصوص .. وادرك أن الكلمات ليست مجرد كلمات وإنما هى عيون لاتراه فقط ولاتراقبه فقط ولكنها تدفعه بعيداً .. تجاوز البيت دون أن يشعر .. أسلمه الشارع الى طريق أفضى به الى

الصحراء .. مضى تطارده العيون .. عاد الى بيته تطارده العيون .. كان الوقت متأخراً وكان الابناء قد ناموا .. أوى الى فراشه وغرق فى بحر العيون سألته زوجته وهى تغالب النوم ان كان ثمة شيء واجاب بأنه لا شيء .. خشى أن تتهمه بالجنون إن قال إن العيون تطارده .. عاد من رحلة الصور وانتهى الشريط الطويل .. جلس فى الفراش يراقبها وهى نائمة فى سلام .. وقال بما يشبه الحسد .. وهل ينام هكذا إلا خالى القلب والعقل ؟ .. ولكنه تذكر فى نفس الوقت أنه برغم أن زواجه منها كان زواجاً تقليدياً وانها كانت زوجة تقليدية فإنه لم ير منها سوى الخير .. وانها كانت بالنسبة له مثل تعويذة الفأل الحسن فقد ترقى فى عمله بسرعة خلال فترة قصيرة وتحسن دخله المادى كثيراً .. وعلى حد تعبير امه « هذه بركة .. أن لها ليدين تلفان فى الحرير » فقد أستطاعت فى بدايتهما الاولى ومع دخلهما المحدود نسبياً فى ذلك الوقت أن تدبر نفسها وأن تدخر مبالغ يسيرة والا تحتاج الى معونة أحد وهى الآن تربى أبناءهما على أفضل وجه وتعمل وتشاركه فى مسؤوليات البيت المالية ، وهى فضلا عن ذلك تقوم بأعمال البيت .. وقد رفضت مطلقاً فكرة الاستعانة بمربية أو مدبرة منزل . وقالت له عندما ناقشها فى الأمر : لاأريد أن يطعم زوجى وأولادى سواى .. ولاأريد أن يربى أبنائى غيرى . تساءل فى مرارة : وماذا كنت تريد فوق هذا ؟ لم يجد جواباً وعاود النظر إلى ذلك الوجه النائم فى استسلام . تنبه لأول مرة إلى الزرقة الخفيفة أسفل العينين وإلى الخطوط الرقيقة التى بدأت تأخذ طريقها إلى الجبين وتحت الخدين .. وقال إن ذلك لا يمكن أن يكون بفعل عامل الزمن وحده .. وإن ثمة معاناة لا يدركها .. أعترف لأول مرة بأنه كان مشغولا بحيث لم يلاحظ شيئاً .. وأنه كان مغلقاً داخل نفسه لا يرى إلا نفسه هو وخواطره هو ورغباته هو وطموحاته هو ، وأنها لم تكن يوماً داخل هذه الطموحات والاهتمامات .. بحث عن علبة لفافاته ولم يجدها .. تذكر أنه تركها فى غرفة المسافرين .. ترك الفراش وذهب الى غرفة المسافرين .. توقف .. كانت ابنته الصغرى ذات السنوات الثلاث تحجل فى أرض الصالة وهى دائخة بتأثير النوم .. رأته ولم تتبينه .. قالت :

– ماما .. أريد أن أشرب ..

– أنا بابا يا حبيبتى .

– هل عدت ؟

– نعم ياحبيبتى
– هل أحضرت معك لى شيئاً ؟
– لا ياحبيبتى ..
– لماذا .. اذن ؟ ـ
– أنا آسف .. سأحضر لك ماتريدين غداً !
– انت هكذا ياأبى ..
– هكذا ماذا .. ؟
– لاتفكر كثيراً فى إحضار شىء لى .. أمى تحضر لى كل شىء ..

أذهله ان تفكر طفلة بهذا المستوى .. ولكنه تساءل .. ومتى كنت مهتماً بالأطفال حتى تدرك أن كان هذا يمكن ام لا؟ لقد كبر الآخرون ولم تدرك طفولتهم فلا تعرف إن كانوا فكروا بهذا المستوى أم لم يفكروا .. قال :

– أعدك ياحبيبتى بأن أحضر لك كل ماتريدين .
– حقاً ؟
– حقا ..
– إذن أريد أن أشرب الآن .

سقاها وحملها إلى فراشها .. نظر الى الآخرين وهم ينامون فى سلام .. وسأل نفسه : ماذا ترى وراء هذا السلام من معاناة ؟ استدار خارجاً ووجدها تقف على باب الغرفة .. فاجأه الموقف .. سألها فى تردد عن سر استيقاظها .. قالت :

– كنت قلقاً هذه الليلة وأقلقتنى معك .. بحثت عنك فلم أجدك بجوارى ورأيت أن أطمئن عليك ..
– حقاً ؟
– ألديك شك فى هذا ؟
– كلا .. ولكن ظننتك مشغولة بالبيت .. والأولاد .. و ..

لم يكن ثمة مايقوله .. شعر كأنه يقف عارياً وكأن عينيها تغوصان فى داخله وتستخرجان ما فى أعماقه .. أنقذته من اضطرابه وقالت :

لاتشق على نفسك .. فالأولاد على أى حال هم جزء منك .. واهتمامى بهم هو جزء من اهتمامى بك ..

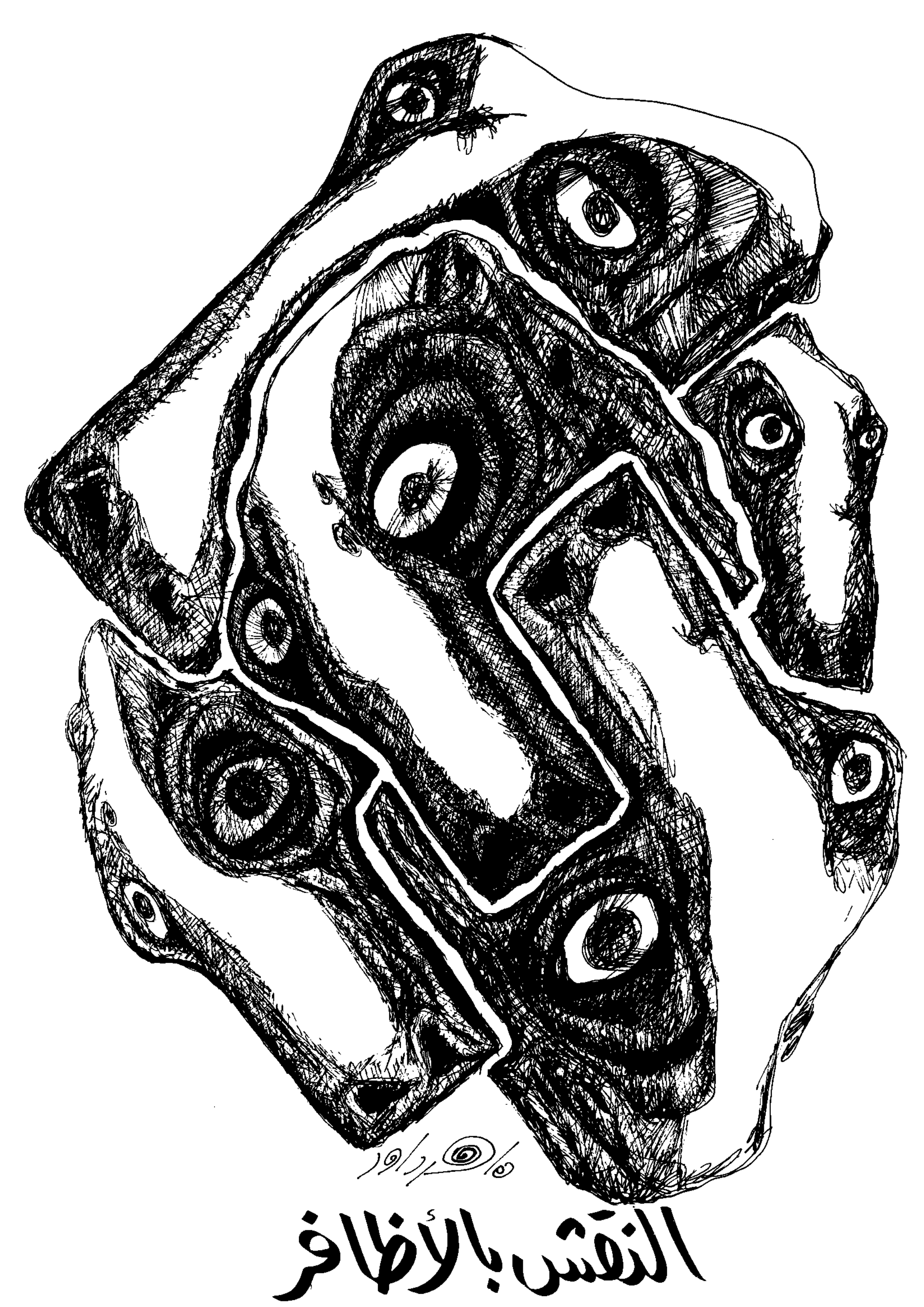
فاجأته الكلمات .. بدا كأنه يعيد اكتشاف العالم .. وان عليه فى لحظة واحدة أن يعيد حساب حياته كاملة .. مد يده إليها .. أمسك بيدها برفق وغادرا الغرفة .. وعندما جلسا فى غرفتهما بادرها قائلا :

– رغم مايبدو من انشغال كل منا فاننا لم نتعود أن تكون لأحدنا أسرار خاصة يخفيها عن الآخر ولذلك .. أريد أن أعترف لك بسر ..
– لاأريدك أن تشق على نفسك ..
– ولكن هذه المشقة مطلوبة لأنها أشبه بالمخاض الذى يخرج الى العالم حياة جديدة .. رأى نفسه مدفوعاً لأن يروى لها ماحدث .. لم يفته تفصيل من التفصيلات الصغيرة .. شعر بأنه يغتسل برواية ماحدث .. سمعت منه بتأثير ممتزج بالتفهم .. وعندما انتهى كانت تبكى . قال لها ..
– أنا آسف أشد الأسف وخجل من نفسى لما حدث .. ولما سببته لك من ألم ..
قالت من بين دموعها ..
– لاعليك .. ليس مطلوباً أن ننتحر عندما نكتشف أننا أخطأنا .. وليس من حق أحدنا أن يشنق الآخر لأنه أخطأ .. وقد حاولت أن أحمل عنك وألا أكون قيداً عليك فى نفس الوقت وربما أكون قد أخطأت أنا الأخرى ..
– لاأراك أخطأت فى شىء ..
– لاتحكم على شىء الآن .. ولاتعذب نفسك بالماضى ودعنا ننظر إلى المستقبل .. ونأمل أن يكون أفضل ..

لم تكن مجرد زوجة تقليدية إذن .. ولكنها كانت تتحرك منطلقة من فكرة كونتها لنفسها وعاشت بها .. قال لنفسه : أى سذاجة كانت تحكمك وتدفعك الى الغرور .. كان بحاجة للنوم .. وكان يرى أن النوم راحة .. ولكنه كان مستريحاً بلا نوم .. الآن هدأ واستقر .. وعرف طريقاً بلا أشواك .. استرخى فى هدوء .. مد يده وضم رأسها اليه .. فتحت عينيها فى هدوء تبادلت العيون الحديث .. كان فيها قليل من العتاب وكثير من الحب .







النقش بالأظافر

النقش بالأظافر

فرغ من وضع اللمسات الأخيرة فى اللوحة .. وبحكم العادة ألقى عليها نظرة أخيرة فاحصة .. نفس النظرة التى اعتاد أن يزن بها اللوحات قبل أن يوقعها .. لم يشعر بالارتياح .. كان التكوين بديعا والألوان متناسقة بما لا يترك مجالا لأى ناقد فنى لأن يجد فيها عيبا .. لكنه مع ذلك شعر باستياء .. لم يكن بحاجة الى مجهود كبير لكى يدرك أنها شكل جميل خال تماما من أى مضمون حقيقى .. وقرر أنه ليس من الظلم وصفها بأنها لا تتجاوز أن تكون ملصقا ردىء الطباعة مكانه الوحيد المناسب مقهى على طريق زراعى لا ينزل به سوى سائق حل به التعب أو مسافر بلا مال ينتظر وسيلة تنقله تطوعا .. واستاذه القديم قال إن الكتابة والرسم والموسيقى ليست تسجيلا للواقع المعاش أو محاكاة للطبيعة ، بل ان هذه الفنون فى جوهرها وسائل للارتقاء بالحس والفكر الانسانى واطلاق الخيال البشرى ليتجاوز اللحظة ويسمو فوق حاجز المكان وفوق الحاجة المادية ويلقى نظرة شمولية تستوعب الكون ويحاول الانسان من خلالها ان يستشرف حكمة الخلق وسر الوجود فى اطار نورانى يتلقى فيه الانسان إلهام الفطرة .. وهذا نوع من العبادة يؤديه . الفنان بصدق فيدخل باب الايمان الواسع ويعطى النوع البشرى إضافة جديدة تثرى عطاءه الحضارى وتميزه أكثر وأكثر عن كل المخلوقات وتحقق حكمة الله فى الخلق .. وهذه مسؤولية تبدأ من الفنان كاتبا أم رساما أم موسيقيا وتنتهى وقد لا تنتهى عند القارىء والمشاهد والمستمع . ولكى يكون فنانا بحق لا بد أن يكون لديه شىء يقال وإلا فالصمت فضيلة .. ردد قول شاعر مجهول « غزلت غزلا رقيقاً فلما لم أجد لغزلى نساجا كسرت مغزلى » ..

وتساءل عن العلاقة بين هذا البيت وبين ما يشعر به من فقدان المعنى فى لوحة أجهد نفسه طويلا فى رسمها .. ثم وكأنه قد ضبط نفسه متلبسا قال أنه فى الماضى لم يكن بحاجة لأن يبذل مجهودا فى الرسم والتعبير عما يريد ان يقول .. ففى ذلك الزمن الماضى كانت ثمة أشياء تقال .. وتساءل ان كان معنى هذا انه لم يعد لديه شىء .. وظل السؤال معلقا حائرا وسط ضباب الحيرة والتعاسة التى حلقت فوقه كطائر خرافى فى اسطورة قديمة ..

ألقى بالفرشاة واستلقى على الأريكة .. وأجال بصره فى الغرفة الرطبة التى حولها الى مرسم .. وتناهى الى سمعه صوت سيارة تتوقف وأطفال يتصايحون .. هب إلى النافذة وألصق وجهه بزجاجها وألقى نظرة ملهوفة وتعرف على وجوه الاطفال .. فقد كان يتابعهم كل يوم .. فى نفس الموعد كل يوم تصل سيارة المدرسة ويهبط منها الاطفال ويظل يتابعهم حتى تحتويهم البيوت وكأنه يتوقع أن يبرز بينهم يوما الوجه الذى افتقده منذ سنوات .. فى ذلك اليوم مات الطفل ولم يكن لديه تكاليف علاجه .. وقالت له زوجته انه بعد ذلك لم يعد ثمة أسباب للبقاء معه .. قالت له «أنت فاشل فاشل لا تصلح لشىء » .. فى ذلك الوقت لم يكن ثمة خيار غير الانفصال .. كان قد بدأ يصدق أنه فاشل ولا يصلح لشىء .. فى البداية كان يؤمن بما قاله استاذه العجوز من أن وظيفة الفن هى أن يغير وجه الحياة الفن الحقيقى هو رفض الواقع والسعى لتغييره وليس مجرد اكتساب المال .. الانسان داخله هذه الحقيقة .. الانسان القديم ترك آثارا منقوشة حفرها بأظافره ولم يكن يسعى من ورائها لاكتساب المال .. ولكنه كان يعبر عن ذلك الفيض الكامن فى الطبيعة البشرية .. قدماء المصريين بالتأكيد لم يكونوا يبحثون عن الثروة حينما بنوا أهرامهم وسجلوا فتوحاتهم الحربية على جدران المعابد .. ولكنهم كانوا يصنعون مجد الانسان .. ولذلك بقيت هذه الآثار رغم ما أصاب الحضارة المصرية من تدهور واضمحلال .. الفن إذن ليس وسيلة للتكسب وإلا أصبح الفنان تكرارا لأى حرفى آخر .. الفنان الحقيقى ظاهرة مستقلة رغم انتمائه للمجتمع .. الفنان الحقيقى يجب أن يظل نقيا وصادقا حتى لو أبتدر التقاء ولبس الريف عمامة خضراء وركب الحصان الأبيض وقبض على السيف الخشبى أو الذهبى .. حتى لو تحول العالم الى زفة كبيرة ..

ولكن العالم لم يتحول فقط الى زفة كبيرة .. العالم حروب وكوارث وفوضى فى كل مكان .. والتحديد لم يعد ممكنا .. كان العالم فى نظره لونين

فقط .. أبيض وأسود .. ولكنه تحول إلى رمادى .. كل الألوان أصبحت رمادية .. الأشجار والمبانى ووجوه الناس كلها صارت رمادية كالحة بلا معنى .. وكان ذلك مصدر الخلاف بينهما .. كانا زميلى دراسة فى كلية الفنون وتبادلا الحب وتزوجا .. ولكنها كانت واقعية .. ولذلك أصابت نجاحا كبيرا من خلال عملها فى مكتب ديكور .. أما هو فقد اصطدم كثيرا ولم يوفق الى عمل ثابت .. وعكف على رسم لوحات لم يفهمها كثير من الناس .. وظلت أعباء البيت موزعة توزيعا غير عادل .. وكان هذا مصدرا لكثير من المشكلات .. ولكن لأنها أيضا فنانة بقدر فقد تجاوزت عن كثير .. وعندما مات الولد كان ذلك نهاية لقدرتها على الاحتمال فانفصلا .. انهار جبل الصبر .. وبدا الحب وهما والفن أكذوبة كبيرة ..

ذهبت إذن أيام البهجة والبراءة ولم يبق سوى الوحدة والغربة والشتات .. فلم يكن يتصور أنه يستطيع أن يعيش قريبا منها وبعيدا عنها فى نفس الوقت .. وسعى اليها ولكن دون جدوى .. ولذلك عندما لاحت الفرصة للعمل مع شركة بناء خارج البلاد حمل حقيبته ورحل .. وقتل نفسه عملا .. أغرق نفسه فى الخرائط والرسومات واستغرق وسط العمال والرافعات .. ولكنه مع ذلك ظل غريباً .. مفردات اللغة واحدة ولكنها فقدت قدرتها على الترامز .. الكلمات لها طعم مختلف .. مذاق مختلف .. ولون واحد هو اللون الرمادى وظل غريبا حتى عن نفسه .. وتذكر قول أستاذه العجوز .. الفنان الحقيقى يرسم ويرسم بالريشة ، بالفرشاة ، وبالأظافر يرسم .. لو فهمه الناس أو لم يفهموه يرسم .. الفنان الحقيقى يتجاوز اللحظة ويقفز فوق حاجز المكان ويتخلص من اسار الحاجات المادية ويستشرف المستقبل .. ولم تغب ذكرى الأستاذ العجوز ولكن تردد فى أذنيه قول صديق ساخر علق على سفره قائلا : « خائب بلاده خائب بلاد الناس » وتساءل إن كان ذلك صحيحا .. لكنه لم يجد إجابة مريحة ..

أزاح رأسه عن النافذة وجال فى الغرفة .. تأمل اللوحة من جديد .. حاول أن يميز ألوانها ولكنه لم يستطع .. ظلت كلها رمادية .. متفاوتة الدرجات ولكنها فى النهاية رمادية .. كأنها بقايا حريق نقلته الفرشاة الى القماش .. أدرك فى لحظة أن هذا الحريق كان داخله وأن هذه هى بقاياه .. وحاول أن يتذكر أسم الكاتب الذى سألوه فى الاذاعة عن تعريفه للسعادة فقال إنها شعور داخلى يتكون داخل الانسان وينعكس على الأشياء خارجه .. وحقيقة الأشياء لا تتغير وانما الذى يتغير هو نظرتنا لها .. وأضاف معقبا .. والتغيير أيضا شيء يبدأ يتكون داخل الانسان

وينعكس على الأشياء حوله .. وثمة شاعر مجهول قال :

ياأنت يامسامرى
مصيبتى أظافرى
فالويل لى .. والويل لك
لأن شيخنا الذى كتب
« ما حك جلدك مثل ظفرك »
أراد ان نكف عن تقليمها
حتى نقاوم الجرب

قال : الزيف والحقيقة وجهان لعملة واحدة .. وعلينا ان نختار .. وأن نكون أقوياء بقدر كاف لندافع عن اختيارنا .. وتساءل ان كان قويا بالقدر الكافى ليدافع عن اختياره ..

و .. عندما حملته الطائرة عائدا استطاع فى هذا الوقت فقط ان يرى الألوان على حقيقتها ..




الموت ضحكاً



الموت ضحكا

ارتفع الرجل عاليا فى الهواء .. هذه المرة اقترب كثيرا من سقف خيمة السيرك ، وتراقص وهو يهوى الى حيث التقطته ايدى زملائه لتدفع به الى اعلى من جديد .. أصدر أصواتا غير مفهومة .. واهتزت الخيمة الكبيرة من فرط الضجيج . ضحك الناس كما لم يضحكوا من قبل . بعض الناس وثب الى الأمام والبعض استقلوا على أقفيتهم وآخرون امسكوا ببطونهم يفرغون أحزان أعوام طويلة .. كانوا بالفعل قد حزنوا كثيرا كثيرا وزخفت الهموم المتكررة تغطى كل مساحات القلوب .. ومن كثرة ما حزنوا ملوا أحزانهم .. ولأنهم فقدوا الأمل فى فرح حقيقى فقد صاروا يتطلعون الى أى شيء حتى ولو كان حزنا جديداً .. ولكن موسم الحصاد هذا العام كان موسم خير .. لم يكن خيرا كثيرا ولكنه خير على كل حال .. وانكمشت قليلا مساحات الأحزان .. وبدأ الناس أكثر تطلعا للفرح .. وتهيأ كثيرون من شباب القرية للزواج .. وعندما أشيع فى القرية أو السيرك الكبير فى المدينة سيصل إلى القرية لبضعة أيام جن الناس من الفرح .. كانوا قد علموا بوصول السيرك إلى المدينة ولكن قليلين جدا هم الذين يسافرون اليها .. وقليل منهم كان لديهم الاستعداد لانفاق الوقت والمال فى هذا الترف .. وأقل القليل هم الذين شاهدوا السيرك وعادوا الى القرية يتحدثون بما رأوا .. وعندما وصلت عربات السيرك الى مشارف القرية استقبلها الناس استقبال الغزاة العائدين بالنصر العظيم .. وظلوا فى شبه حلم حتى وهم يساعدون فى إقامة الخيام .. وأمضوا ليلتهم فيما يشبه الاحلام .. وعندما بدأت فقرات العرض كان الناس جاهزين للضحك وعندما يمر أحد العاملين بالسيرك يشيرون اليه بأيديهم ويضحكون .. وعندما يسدل الستار يتبادلون الأحاديث ويضحكون .. وعندما

تبدأ أو تنتهى أى فقرة يضحكون ويضحكون . وعندما بدأت فقرة المهرجين ضحكوا كما لم يضحكوا من قبل ..

★ ★ ★

ارتفع الرجل عاليا فى الهواء .. اقترب من سقف الخيمة أكثر .. ضحك الناس .. ارتفع عاليا وشعر كأنه يسبح فى لجة حالكة السواد .. هوى وشعر كأنه يهوى الى قاع بئر سحيق . استقبلته أيدى زملائه مثلما استقبلته آلاف المرات قبل ذلك بملابسه المزركشة ووجهه المملوء بالأصباغ وجسمه الدقيق المرن . ولكن لا الجسم المرن صار مرنا ولا الأصباغ أصبحت قادرة على أن تخفى هموم قلب متصدع .. فقد مضى الزمن وتبددت الاحلام القديمة .. واصاب الفساد كل شىء .

ارتفع من جديد ورأى الأرض كرة صغيرة يتصاعد منها لهيب مصنوع من العداوة والحقد والصراع غير العادل بين الناس .. وهوى فاقترب من تلك الكرة ليراها سيركا منصوبا هو فيه ترس فى آلة كبيرة – ليس هو وحده ولكن زوجته أيضا ، تلك الشابة التى تفيض عذوبة وحيوية والتى قضى ليال بطولها ورأسه فى حجرها يحلم بسيرك خاص يملكانه معا ويدربان فيه الوحوش ويقدمان عروضا جديدة لم يقدمها أحد من قبل ..

ارتفع من جديد ورآها معلقة فى الترابيز بأعلى الخيمة فى واحدة من أخطر ألعاب السيرك وكان رفيقا لها فى هذه اللعبة .. اقتربا كل من الاخر .. دفعت نفسها نحوه ومد يديه ليستقبلها ولكنها لم تصل اليه وانما هوت الى أرض السيرك ولم تدركها أيدى الواقفين .. ولم تقم من مكانها وصرخ .. وضحك الناس .. وهوى الى أيدى زملائه والصورة القديمة تطارده بكل تفصيلاتها ... وبكل ما أثير فى ذلك الوقت من حديث حول أن الحادث مدبر .. وان صاحب السيرك كان قد هدد قبل الحادث بفترة بأنه لن يسمح لاحد بأن يترك السيرك ولو أضطر لعمل أى شىء .. ولأنه كان ينوى أن يستقل هو وزوجته فقد دبر الحادث .. ولكن أحدا لم يستطع أن يثبت شيئا .. ومضت زوجته وحده مع طفلتها الصغيرة .. كانت أفضل لاعبة فى السيرك .. وعندما ماتت فقد السيرك كثيرا من امكانياته وبدأ هو يفقد صلاحيته للعمل .. ولكن صاحب السيرك الذى انتقل اليه ظل وفيا لذكرى سنوات العمل الأولى له معه وظل مبقيا عليه .. ولكنه استمر يهبط .. وهبط تتلقفه أيدى زملائه وهو يصرخ والناس يضحكون ..

ودفعوه عاليا ولمس سقف الخيمة هذه المرة وشعر وهو يهوى بأن جسمه أصبح اثقل من أى وقت كان .. وانه يهوى بسرعة أكبر من أى وقت مضى .. وعندما أدركته ايدى رفاقه كان قد سقط بالفعل على الأرض وصدرت عنه صرخة هزت أرجاء الخيمة .. انفجر الناس ضحكا .. وفى لحظة أدرك زملاؤه ما حدث وفى اللحظة التالية أسدل الستار ليحاولوا اسعافه والناس فى الخيمة يتصايحون ويصفقون ويدقون الأرض باقدامهم .. وعندما فحصه زملاؤه اكتشفوا انه قد فارق الحياة .. ولم يكن على وجهه أى أثر للابتسام .. وعجزت الأصباغ الحمراء المصنوعة عن أن تخفى صفرة الموت .. نقلوه إلى الداخل وعاودوا فتح الستار ليكملوا العرض والناس فى شدة الانفعال ..

انتهى العرض وخرج الناس وهم يضحكون.وعندما قال قائل أن الرجل قد مات استرجع بعضهم وهز البعض أكتافهم وظلوا جميعا بعد ذلك يضحكون .






امرأة معقدة



إمرأة معقدة

لم يكن فى الأمر أى مفاجأة .. عاد الى البيت متأخرا كالعادة .. وكالعادة أيضا كانت فى انتظاره وقالت له : « طلقنى » ولم يكن فى الأمر أدنى مفاجأة .. وعلى غير العادة لم يستجب لاستفزازها وشرع بخلع ملابسه .. قالت : « إذا لم تطلقنى فسوف أنتحر وأخرب بيتك » .. أغاظها وظل صامتا أيضا وهو يستبدل ملابسه .. ازدادت فى هياجها وألقت فى وجهه بسيل من الشتائم المهينة .. وكأنه لم يسمع ترك غرفة النوم واتجه الى الصالون حاملا صحف اليوم التى لم تتح له فرصة قراءتها خلال النهار .. اندفعت وراءه هائجة .. خطفت الصحف وألقتها أرضا ووقفت أمامه .. تركها وجلس فى مقعد قريب .. ذهبت الى حيث يجلس وقالت : « إذا لم تطلقنى فسوف أفضحك فى كل مكان » ..

أخيرا نطق .. سألها : « أتريدين الطلاق حقا ؟ » قالت : « نعم .. لا أريدك » ..

- ولكنى لاأريد أن أطلقك ..
- لانك رجل بلا كرامة ..
- لا .. ليس لهذا السبب . ولكن من أجل أولادك الثلاثة الصغار ..
- ولكنى لا أريدهم .. لا أريد شيئا يذكرنى بك ..
- قد يكون ذلك صحيحا الآن .. ولكنك فى المستقبل سوف تتنسمين التراب الذى يمشون عليه .. وسوف أحرمك من ذلك ..
- هذا لا يهمنى .. فقط طلقنى .. الآن ..
- لا .. أنا لا أريدك .. لم أعد أطيق أن أراك ..

ولكنى لن أطلقك .. فإن أردت الطلاق فعليك أن تذهبى للمحكمة وتجندى شهود الزور وتخلعى عنك رداء الحياة لكى تقدمى للقاضى أسباباً تقنعه بأنى لا أصلح زوجاً لك وبأن حياتنا رغم كل ما قدمته لك لا تصلح للاستمرار ..

استفزها كلامه الهادىء .. هبت واقفة وفى نفس اللحظة هب واقفا على قدميه .. كادت تواصل شتائمها ولكنها لم تستطع .. فقد هوت يده على وجهها .. كانت تستطيع أن تقاوم .. أن تصيح على الأقل .. ولكنها ظلت واقفة .. ضمت كفيها على وجهها وظلت واقفة تنتظر الخطوة التالية .. وجاءت الخطوة التالية صفعة جديدة .. ومثلما حدث فى مرات أخرى ظل يضربها حتى مل الضرب ومل رؤيتها وهى تستعذب الصفعات وكأنها قبلات يطبعها على خدها .. دفعها أمامه إلى غرفة النوم .. ثم دفعها نحو سرير وغادر الغرفة مغلقا الباب خلفه .. وعاد الى صحفه يجمعها من الارض .. ولكنه لم يجد لديه أى رغبة فى القراءة .. فكر فى أن يترك البيت ولكن كان الوقت متأخرا فلم يكن ثمة مكان يذهب اليه . كل الناس ناموا الا هو .. قليل النوم هو وهل تترك الهموم مكانا للنوم .. منذ بضع سنوات تزوجا .. كان منطلقا فى الدنيا .. أتاح له عمله فى شركة السياحة ان يصحب العديد من الوفود الى كل الأماكن السياحية فى البلاد ، كما أتاح له أن يسافر الى دول عديدة فى مختلف القارات .. وأتاح له احتكاكه المستمر أن يجيد أكثر من لغة وأن يعرف أناسا من شتى البلاد .. وكان بمقدوره أن يتزوج إذا أراد من أى فتاة جميلة .. ولكنه كأى شرقى يحب بقلبه ويتزوج بعقله .. وقال له عقله أنه يريد ربة بيت تنحب وتربى وتحفظه .. ولذلك فقد تزوج بطريقة تقليدية .. سأل أسرته أن كانوا يرشحون له زوجة .. واستعرضت الاسرة قائمة بنات الاسر التى تعرفها .. ووقع الاختيار عليها .. فهى من أسرة محافظة لا أحد يختلط بها ولا أحد منها يُسمع له صوت .. وكأى زواج تقليدى تم تبادل الزيارات وحددت الترتيبات والمواعيد .. وكانت لديه شقته الخاصة ولكن كان يلزم العديد من التغييرات فيها .. ولكنها لم تكن تريد الانتظار .. ذات يوم قالت له : « ليس عندى مانع من أن نزف فى بيت الأسرة .. أريد أن أكون معك .. لا أريد شيئا يباعد بيننا .. ولا أريد أن أنتظر يوما » .. كانت مفاجأة له .. ولكنه لم يستهجن الأمر .. كان هو ايضا يريدها .. فقد مل حياة الانفلات وكان يريد الاستقرار .. وهكذا زُفّا ..

لم يستمر العسل طويلا .. فبعد أيام قليلة شكت من آن أمه تريد أن تكلفها بأعمال فى البيت .. وأن أخته الصغيرة تستخدم أدوتها .. ثم شكت من أن أخته تغار منها .. كان يدرك أن ذلك ليس صحيحا ، ولكنه شعر بأنه لا بد أن ينتقل بها بسرعة الى مسكنه الخاص .. وهكذا انتقلا .. ولكن رواياتها عن مضايقات أهله لم تتوقف .. وكان مستعدا لأن يصدقها لولا أنه كان يرى مدى تفانى الصغير والكبير منهم فى تقديم كل عون لها .. وبدأ يشعر بأنه قد تعجل .. ولم يكن ثمة سبيل لالقاء اللوم على أحد .. قالت انه لا علاقة له بايرادها من عملها ووافق .. طلبت ألا تكون لع علاقة مالية بأهله وقبل .. مضى خلفها الى أطباء أمراض النساء لكى تنجب وأنجبت .. وفى كل مرة من المرات الثلاث كان يشعر أن حمله يزداد وهمومه تزداد .. وكانت تشعر بأن ذلك يمكنها منه أكثر .. وعندما كان يفكر فى طلاقها كان يردد دائما « أن أبغض الحلال عند الله الطلاق » .. ورغم أنه لم يكن شديد التدين فإنه كان يدرك باحساس خفى أن الطلاق خطوة لا يقدم عليها الانسان الا فى حالة يأس .. وفورة لا تخلف وراءها الا مزيدا من الآلام والمتاعب .. تماما مثل الذى يتخلص من آلام ساقه بقطعها .. يستريح وقتا قصيرا ثم يفيق بعد ذلك على آلام العجز والتشوه .. قال .. ولكن هموم ما بعد الطلاق أكثر .. فآثاره ليست شخصية .. فقد تستطيع أن تتزوج وهذا لا يهم .. وقد أستطيع أن أتزوج غيرها بسهولة وهذا أيضا لا يهم .. ولكن ماهو مصير هؤلاء الثلاثة ؟ وما ذنبهم فيما يجرى بيننا من خلاف ..

على غير العادة لم يسع لمصالحتها .. ظل جالسا وقتا طويلا يتأمل من النافذة المفتوحة نجمة بعيدة خابية الضوء .. وتابع بسمعه صوت سيارة تمرق فى الشارع الرئيسى القريب .. وذهب الى غرفة النوم .. فتح الباب ودخل ثم أغلقه .. رقد فى سريره بهدوء .. كانت الغرفة مظلمة نسبيا .. أدرك من تنفسها أنها لم تنم .. لم يعرها اهتماما وواصل محاولة النوم .. شعر بها تزحف اليه من طرف السرير وتلتصق به .. وضعت رأسها على صدره وبكت .. دفعها عنه .. عادت أكثر التصاقا به .. تقزز ودفعها عنه من جديد .. أصبحت أكثر اصرارا والحاحا .. جاء صوتها خشنا متحشرجا : « حبيبى .. سامحنى .. أنت حبيبى » .. تقزز أكثر ولكنه لم يكن أمامه سبيل للتخلص منها فى هذا الوقت من الليل سوى تهدئتها .. ربت عليها .. دفنت نفسها فيه .. استثارته الحرارة والظلمة .. ووسط لهاثها اعتذرت له .. كررت الاعتذار اللاهث .. لم يكن ثمة وقت للمناقشة أو اللوم أو

العتاب .. وعندما كان النوم يغالبه كان يفكر والتقزز لم يفارقه .. هل يمكن أن يكون فى الدنيا حب تتلاشى فيه كبرياء الانسان ؟ وكيف يتلاقى الضارب والمضروب فى عناق خاص جدا ؟ وأى نوع من البشر هؤلاء الذين يتضاربون ثم يستمتعون بلحظاتهم الخاصة ؟ ولم يطل به التفكير فقد غلبه النوم فنام .. وعندما استيقظا فى الصباح بدا كأن شيئا لم يحدث .. فقد أعدت له طعام الأفطار وجلست ترقبه فيما يشبه الحنان وهو يحتسى فنجان الشاى ، ثم ودعته الى الباب ..

عاد من عمله مجهدا .. تناول غداءه بسرعة دون حديث .. وغادر البيت مرة أخرى لفترة العمل المسائية .. وعندما عاد كانت حزمة جديدة من المتاعب فى الانتظار .. بادرته قائلة :

– لقد مللت البيت والأولاد ..

– ألم يكن طلبك هو الحصول على أجازة طويلة بدون مرتب للتفرغ للأولاد ؟ أو لم يكن الأولاد هم حلم حياتك .؟

– ولكنى ضقت بهم ولم أعد أحلم بشىء ..

– وما العمل اذن ؟

– يأخذ أهلك الأولاد ..

– أهلى ليسوا ملزمين بتربيتهم .. لقد ربونى وانتهى الأمر ..

– ولكنى لا أريدهم ..

– من أنت .. ماذا أنت ؟ تزوجت لا لتنشىء بيتا وأسرة ولكن لتؤكدى أنك صالحة للزواج .. وأنجبت لا لتمارسى الامومة الحقة وتربى أطفالا .. وانما لتثبتى لنفسك وللناس أنك انثى تصلحين للانجاب .. وأنجبت ثلاثة لا لتربيهم تربية جيدة ولكن لتجعليهم أغلالا فى رقبتى .. ويوم تزوجتك لم يكن يعنينى جمالك أو مقاسات جسمك فلقد رأيت الكثير .. كل ما كان يعنينى هو شريكة حياة تمضى معى يدا فى يد لنقطع رحلة الحياة .. كنت فى البداية أحلم وأتخيل حياتنا بعد أن نشيخ ونشكو من الوحدة بعد أن يكبر الاولاد ويتزوجوا .. ولكنى أشعر الآن بالشيخوخة والوحدة بعد عشر سنوات فقط من الزواج .. الآن أجدنى وحيدا وحيدا أكثر من أى وقت آخر ..

– ما دام هذا هو الأمر فاذن طلقنى ..

-- لن تنالى هذا أبداً ..

– لانك تخاف ..
– نعم .. لأنى أخاف الله .. وأخاف على ثلاثة صغار ليس لهم ذنب ..

استولى عليه الحزن .. لم يكن قد بدل ملابسه .. غادر البيت .. فكر فى أن يذهب الى بيت والده .. وفى الطريق عدل عن الفكرة لاحتمال أن يثار الموضوع .. لم يكن يريد أن يدخل أحد فيما يحدث .. مضى بدون هدف محدد .. وجد نفسه فى النهاية جالسا فى مقعد فى كازينو على النيل .. مكان اعتاد أن يجلس فيه قبل الزواج وبعده .. وكم من مرة اعتاد أن يأتى اليه فى صحبة وفود سياحية حيث يجلسون فى الليل يشاهدون امتداد النيل ومبانى القاهرة القديمة والحديثة فى شريط واحد من كوبرى أبو العلا مرورا بكوبرى قصر النيل وصولا الى مصر القديمة .. وكم من بطاقات تبادلها مع سياح لم يقدر له أن يراهم مرة أخرى .. وكم من سائحة عرفها وتبادل معها الهدايا ووعود اللقاء على سلم الطائرة ثم انتهى كل شىء .. ساندى الأمريكية وروزالند الانجليزية ومانويلا الايطالية وكاترين الألمانية ومئات غيرهن .. ابتسم ابتسامة حزينة وتذكر كم أصبح مغلولا بالأولاد .. سافر كل هؤلاء .. وكان هو أيضا دائم السفر .. يجدد بالسفر حياته وأفكاره عن الدنيا والناس .. ويجدد مشاعره .. قال لنفسه .. هذه هى مياه النيل دائبة السفر .. انها لا تتوقف أبدا .. تأتى من الجبال على بعد آلاف الاميال .. وتذهب الى البحر .. تبخرها الشمس وتحملها الرياح فتسقطها مطرا على الجبال فتأتى من جديد .. تساءل .. كم ألف مليون مرة تكرر فيها مرور كل قطرة من قطرات هذه المياه فى نفس المكان .. وكم ألف مليون مرة سوف يتكرر مرورها .. وكم نحن مشدودون إلى أماكننا نهوى التعذب بالبقاء فيها والشكوى من الهموم والملل ..

فى صباح اليوم التالى كان فى مكتب مدير الشركة بناء على طلبه .. قال له المدير أن الشركة قررت افتتاح مكتب فى روما .. وقد تقرر ندبه للعمل مديرا للمكتب لمدة ستة شهور على الاقل لتنظيم العمل به وله أن يختار معاونيه .. وفى نهاية الشهور الستة له أن يقرر اذا أراد الاستمرار .. و .. لم يكن بحاجة الى كثير من التفكير لكى يقرر .. رغم أن مدير الشركة قد أعطاه وقتا للتفكير فانه أبلغه قراره فى نفس اللقاء .. قال له المدير :
– اذن على بركة الله .. السفر سيكون بعد أسبوع .. أعط جواز سفرك للسكرتير وسوف يتولى الحصول على التأشيرة واعداد تذكرة الطائرة والحجز ..

كان رغم كل ما بينهما قد اعتاد فى لحظات الصفاء النادرة أن يحكى لها أحلامه وأفكاره ومشروعاته .. ولكنه هذه المرة لم يتكلم .. حتى فى ساعات الصفاء اكتفى بالاستماع .. وفى مساء اليوم السابق للسفر رأته يرتب حقائبه .. فاجأها الموقف .. سألته :

– أأنت مسافر ؟

– نعم .

– إلى أين ؟

– إلى روما .

– أتغيب طويلا ؟

– ستة أشهر وربما أكثر .

– وماذا عنا .. أنا والاولاد ؟

– هذا هو دفتر الشيكات .. وقعت شيكات للاشهر الستة .. سجلى المبلغ الذى تحتاجينه كل شهر .. وإذا اتضح أننى سأبقى أكثر من ذلك سأتدبر الأمر ..

– ولكنى لا أريد نقودا .

– ماذا تريدين اذن ؟

– أريدك أنت .. نريدك أنت ..

– اعتبرى نفسك فى اجازة منى ..

– لا أريد هذه الإجازة ..

– اذن فاعتبرينى أنا فى أجازة منك ..

– أهكذا ؟ أهذه نهاية عشر سنوات من الحب ..

منع نفسه من أن يقول لها إن ما بينهما لم يكن حبا ولكنه مجرد عشرة تحولت الى عادة .. مثل التدخين والعادات الضارة .. منع نفسه ولم يقل شيئا .. اهتاجت وطلبت أن يطلقها قبل أن يسافر .. ولكنه ظل صامتا .. حتى عندما احتوتهما ظلمة غرفة النوم لم يستثره لهاثها .. ظل باردا .. وفى الصبح بدلا ملابسه وقبل الاولاد وحمل حقائبه .. حاولت أن تذهب معه الى المطار ولكنه أبقاها بحركة من يده وغادر البيت ..

وعندما أقلعت به الطائرة لم يشعر بأنه قد تخفف من همومه كما كان يتوقع .. اندهش لهذا الشعور .. ولكنه تشاغل بتصفح احدى المجلات .. وفى

روما استوعبه العمل تماما .. وذات مساء فكر فى أن الواجب يقتضيه أن يكتب اليها .. لم يجد شيئا يكتبه .. كتب وصفا لبرنامجه اليومى ثم التحيات التقليدية .. ثم تمنياته لها وللاولاد ..

وعندما وصلها خطابه كانت قد مضت أسابيع على سفره .. وكانت على حافة الجنون .. فبسرعة ملت البقاء فى البيت .. خاصة وأن العام الدراسى قد بدأ والكبيران من الاولاد أصبحا يذهبان الى المدرسة والصغيرة تذهب الى الحضانة .. وأصبح عليها أن تبقى طوال النهار تنتظر ، وأن تمضى المساء تعاون الاولاد فى المذاكرة .. وتمضى الليل وحيدة .. لم يخفف من وحدتها زيارة أخوتها لها .. وعندما ذهبت الى بيت أهلها شعرت بتبرم الكبار من لعب أولادها فأخذتهم وخرجت غاضبة .. ذهبت الى بيت أبيه ورغم ترحيبهم بها فقد أدركت أنهم مشغولون عنها كل بهمومه الخاصة .. وفى النهاية عادت تجترهم الوحدة وتسترجع أيامها معه .. تذكرت كل التفصيلات الدقيقة فى حياتهما .. أدركت أى فراغ قد سقطت فيه .. فراغ بلا نهاية .. هوة بلا قاع .. صرخت تناديه : « عد .. عد » .. ولكنه كان بعيدا بعيداً لا يسمع .. وحتى عندما عادت الى عملها وكانت قد انقطعت عنه شهورا طويلة لم تجد الراحة حتى عند أخلص زميلاتها .. فلدى الناس من الهموم ما يكفيهم ولا أحد مستعد للاضافة الى همه من هموم الآخرين .. وعندما روت لزميلتها قالت الزميلة : « وهل سألت نفسك لماذا قبل السفر ؟ الذى أعرفه أن المال لا ينقصه .. ونجاحه فى عمله هنا مشهود به من الجميع .. فهل سألت نفسك لماذا قبل أن يذهب ويبقى وحيداً ويتركك وحيدة » .

- سألت نفسى كثيرا ..
- هل توصلت الى شىء ؟
- توصلت الى أن ثمة خطأ فى علاقتنا .. ولكنى لم أعرف مصدره ..
- هذه هى مشكلتك .. أنك لا تصارحين نفسك ..
- كيف ؟
- مشكلتك أنك تريدين أن تحصلى على كل شىء بلا مقابل .. تريدين الحب والثروة والاولاد والوجاهة الاجتماعية بدون أن تقدمى شيئا .. والحب لا يشترى من السوق .. والثروة يقابلها المجهود .. والاولاد حصيلة أمومة وأبوة .. والوجاهة الاجتماعية عرض زائف وزائل .. وليس ذنب الرجل أنك عشت ظروفا

صعبة ليس هو مسؤولاً عنها .. مشكلتك أنك تريدين منه أن يدفع ثمن ظروفك الصعبة .

– ولكن أريده الآن ..
– انك لا تريدينه بصدق .. ولكنك تريدين استكمال وجاهتك الاجتماعية .. وعندما تكونين صادقة فسوف يشعر بذلك وسوف تجدينه أمامك ..
– وكيف أفعل ذلك .. كيف أستعيده ..؟
– هذا دليل جديد على أنك لست صادقة .. فأنت وحدك تعرفين مصدر مشكلتك معه .. ووحدك تعرفين حلها .. ولكنك لا تريدين الحل .. أو بالاصح تريدين الحل دون أن تضحى بشىء حتى ولو كان هذا الشىء هو احساسا زائفا بالكرامة ..

أغضبها كلام الصديقة .. شعرت أنها قد جرحتها فى الصميم وخلعت عنها رداءها ولكنها عندما استعادت شريط حديثها معها استعادت فى نفس الوقت ذكرياتها معه .. قالت فى النهاية : « ربما كانت على حق » .. وصدمها هذا الاحتمال .. وعادت تقلب الأمر على كل الوجوه .. تذكرت كيف تكفل بكل شىء .. بالشقة .. بالتجهيز .. بالسيارة .. بكل المظاهر التى طلبتها .. بكل الطلبات غير المعقولة التى تقدم بها أهلها .. لم يمل أو يتضجر .. كان يقابل كل طلب بالطاعة وكل تجاوز بالابتسام .. وكان يردد دائما « اننا لا نبنى بيتا » .. « اننا نبنى حياة » .. ويوم زفافهما قالت له : « يسعدنى أن أكون خادمتك » .. يومها غضب وقال : « أنا لا أريد خادمة .. أريد شريكة حياة » .. ولكنها لم تكن خادمة ولم تستطع أن تكون شريكة .. كان لها طوال الوقت أن تأخذ وعليه طوال الوقت أن يعطى .. ويوما ما قال لها : « أنا لا أحب التنازل .. لان التنازل الأول لا يكون هو التنازل الأخير وانما يفتح الباب لتنازلات لا تنتهى ومع هذا فانى مستعد للتنازل عن أى شىء من أجل أن نعيش سعداء » ..

كان رفيقا .. تذكرت .. فى أحد الأيام أبدى ملاحظة حول زيادة المصروفات .. وقال لها : « أريدك أن تشاركينى فى تحمل المسؤولية » ..

– ولكنك رجل البيت وعليك أن تتحمل كل النفقات .. ولا علاقة لك بمرتبى ..
– أنا لم أتحدث عن مرتبك .. لا أريد شيئا من مرتبك ولا أريد أن أعرف كم

تتقاضين .. ولكن فقط أريدك أن تمسكى يدك قليلا فى الانفاق .. ولا ينبغى أن نعيش اليوم على حساب الغد .
تراجعت وقالت :
– لا أقصد أن أسيء اليك .. أنا أوفر مالى للأولاد ..
– وفريه لنفسك .. أنا لست غافلا عن حاجة الأولاد الآن وفى المستقبل .. ومن فضل الله أن لدينا ما يكفينا الآن وما يوفر شيئا لمستقبل الأولاد ..

كان متسامحا .. تذكرت .. واعتصرها الالم .. لقد مضى .. ولا تدرى متى يعود .. مضت الشهور الستة ولم يعد .. أرسل لها يعتذر .. كان الخطاب شديد الايجاز «عزيزتى سميرة .. أعتذر عن اضطرارى للبقاء ستة شهور أخرى لاستكمال العمل فى المكتب .. أرسل لك شيكات دونى فيها المبالغ التى تلزمك أنت والأولاد فى الفترة القادمة .. أرجو أن تهتمى بنفسك وبالأولاد .. مع تحياتى .. نبيل » ..

كان الخطاب من باب أداء الواجب .. رددت : « هو دائما يعرف الواجب .. وسألت نفسها .. « وماذا فعلت أنت من واجب ؟ « ولم تحر جوابا .. وشعرت بالزهد فى أن تعيش .. أصبحت الحياة كئيبة وبلا معنى .. لم يستطع وجود الأولاد أن يعوضها عن غيابه .. بل على العكس أصبح وجودهم مرهقا لها .. فكل منهم يذكرها به حتى الصغيرة التى لاتكاد تقول كلمات مفهومة لم تستطع نسيانه رغم مرور الشهور .. كل يوم تسأل عنه ويعذبها السؤال ..

وفى أحد الأيام ذهبت إلى احدى المصالح لانجاز بعض الأوراق .. بصعوبة استطاعت أن تصل الى الموظف المختص .. لاحظت تشاغله بالحديث مع صديق يجلس بجواره .. نبهته فنظر اليها .. لم ترحها نظراته .. تأملها طويلا بنظرة وقحة .. قام صديقه وعرض عليها أن تجلس .. سألها الموظف عن حاجتها ونظراته تخترق ملابسها .. أخبرته بمطلبها .. وعدها خيرا وتشاغل بالاستماع لآخرين .. نبهته من جديد .. التفت اليها بنفس النظرة الوقحة .. بادرته بانفعال :
– يا أستاذ .. أريد أن أنتهى .
– يا هانم .. أنا أريد أن أريحك ..
– ياسيدى .. لا أريدك أن تريحنى ولا شيء .. أريدك فقط أن توقع الورقة التى أمامك ..

- هكذا .. الورقة ناقصة تمغة ..
- هذه هى التمغة .. هل هناك شىء آخر ؟
- لا .. أتركيها اذن .. ومرى غدا ..
- لا يمكن ..
- لماذا ؟
- ألا ترين كل هذه الأوراق .. كلها قبل ورقتك .. ولا بد أن أدرسها جميعا قبل توقيعها .. وبالمناسبة لن تتسلميها منى فهى سوف تأخذ دورها .. وعندما تحضرين غدا اذهبى الى الموظف المختص فى الغرفة المجاورة ..

خرجت يقتلها الغيظ .. بصعوبة وجدت سيارة أجرة .. عادت الى البيت مكتومة الانفاس .. ألقت بنفسها فى السرير وانبعثت تبكى .. التف حولها الاولاد .. بكوا معها .. شعرت بأنها يتيمة .. رددت : « لو أنه هنا .. لو أنه هنا .. ما كنت قد صرت مطمعا للكلاب » ..

فى الصباح لم تذهب الى عملها .. ذهبت الى مقر شركته .. سألها سكرتير المدير العام عن حاجتها .. قالت له :
- أريد أن أرى المدير العام ..
- أقول له من ؟
- زوجة الأستاذ نبيل عبد المجيد ..
تأملها الرجل مليا .. تذكرها ..
- من .. سميرة هانم ؟ كيف حالك يا أبنتى .. لعلك لا تذكريننى .. لقد حضرت زفافك منذ سنوات .. كيف حالك وحال الاولاد ؟
- الحمد لله .. بخير .. كلنا بخير ..
استقبلها المدير بود ظاهر .. وسألها :
- ماذا أستطيع من أجلك يا هانم ؟
- أريد نبيل .. أريده أن يعود ..
- عجيب .
- ما هو العجيب يا فندم ؟
- كنت أتصور أن تتحمسى لوجوده فى أكبر مكتب لنا فى الخارج .. فهذا دليل على ثقة الشركة فيه .. فنبيل فعلا من أكفأ موظفى الشركة .. ونجاحه فى المكتب خطوة فى سبيل وصوله إلى منصب أعلى عند عودته إلى القاهرة ..

أرجوك .. أرجوك .. لا أريد شيئا من هذا .. لا يهمنى شيء من هذا .. أريده هو .. مديرا أو فراشا لا يهم .. يهمنى فقط أن يكون معى ..

– اسمعي يا أبنتى .. أنا لا أحب أن أتدخل فى الحياة الشخصية لاحد .. ولكن نبيل ليس مجرد موظف ممتاز فى الشركة بل اننى أعتبره ابنا لى أو أخا صغيرا .. وقد قررت ايفاده إلى روما ليس فقط لانه من أكفأ موظفى الشركة ولكن لانقاذه من الحالة التى كان فيها .. لقد لاحظت انخفاض رحه المعنوية وكثرة اخطائه وهى أشياء لم نتعودها منه .. وقد احتاج الأمر الى مناقشات ومحاولات عديدة لكى أعرف منه مصدر متاعبه .. ولا تؤاخذينى .. فقد كنت أنت مصدر هذه المتاعب ..

– يا أبنتى .. الحياة أخذ وعطاء .. وأحيانا لا يكون مطلوبا للانسان أكثر من كلمة حب صادقة أو لمسة وفاء تغسل همومه وتساعده على مقابلة متاعب الحياة .. وبدون ذلك يكون الحب مجرد كلمة مبتذلة لا معنى لها .. وتكون الحياة الزوجية مجرد خدعة كبيرة يعيشها الانسان ..

– أرجوك .. كفى .. لقد تعبت .. تعبت من كثرة ما فكرت .. وتعبت من كثرة ما عانيت .. ولولا وجود الاولاد لما اهتممت بأن أعيش .. وكذلك لولا الأمل فى أن أراه من جديد وأن أعوضه عما فات ..

– وماذا فعلت لتعويضه عما فات ؟ ها أنت هنا تطلبين أن يعود وأنت تعرفين أن مستقبله فى الشركة مرتبط بنجاحه فى إدارة المكتب فى روما .. وذلك بدلا من أن تضحى بكبريائك وتذهى إليه ..

– تقول أذهب إليه ؟

– نعم .. ولماذا لا ؟ هل لديك ما تعتذرين به ؟

– الأولاد ..

– الأولاد ليسوا عذرا .. فالدراسة قد انتهت وهم الآن فى اجازة .. خذيهم معك وسافرى .. وإذا كنت جادة فسوف نتولى الأمر بالكامل سواء بالنسبة لتذاكر الطائرة أو الحصول على التأشيرات .. واعتبرى هذا هدية منى ومن الشركة .. فقط أريد أن أتأكد أنك جادة ..

– لا أدرى كيف أشكرك ..

غادرت المكتب .. وفى البيت بكت .. لم تكن تدرى سببا واضحا

لبكائها .. هل هى دموع السعادة أم دموع الأرتياح أم دموع التكفير .. فقط أرادت أن تبكى .. لأول مرة فى حياتها لم تكن تنتظر ثمنا لهذه الدموع .. فلم يكن ثمة أحد يراها ولا حتى الأولاد .. كان الأولاد يلعبون فى الشارع .. وكانت تبحث فى دولابها عن جواز السفر .. وفى صباح اليوم التالى كانت فى مكتب الجوازات تضيف الأولاد الى جواز السفر .. وبعد أيام كانت فى مكتب مدير الشركة تتسلم التذاكر .. وفى اليوم التالى كانت تتسلم جواز السفر ..

وفى ليلة السفر لم تنم .. ولم ينم أحد من الأولاد .. كانت الفرحة أكبر من أن تترك فرصة للنوم .. فكرت فى أنه كان من الواجب أن تبلغه بسفرها حتى ينتظرها فى المطار ولكنها قررت أن تجعلها مفاجأة له .. ولكن المفاجأة كانت لها .. فعندما وصلت إلى مطار روما كان فى انتظارها .. صافحها مصافحة عادية وعانق الأطفال .. شعرت بخيبة الأمل .. ولكنها كبحت جماح شعورها ورددت لنفسها : « ها أنت تعودين كما كنت .. تريدين بمجرد أنك حضرت أن يتغير كل شيء .. وأن يذوب جبل الجليد الذى صنعته بيديك وأقمته حائلا بينك وبينه .. وتريدين أن يأتى راكعا ويضع نفسه بين يديك .. ها أنت تعودين تريدين كل شيء فى مقابل لا شيء وقد كدت تخسرين كل شيء » .. قال لها بهدوء :

– لم تخبرينى أنك قادمة ..
– أردت أن أجعلها مفاجأة لك .. ولكن هل أزعجك حضورنا ..
– لا .. لا أزعجنى ولا شيء ..
– ولكنك تبدو متكدرا من حضورنا .. إذا كان إحساسى هذا صحيحا فأنا مستعدة لان أعود إلى القاهرة ..
– لا تقولى هذا .. بالعكس .. لقد كنت أتابع حضوركم مع الشركة ..
– إذن فقد كنت تعرف أننا قادمون ؟
– وهل تظنين أن وجودى فى المطار كان بمحض الصدفة ؟ لقد أخبرنى المدير بزيارتك له ..

كانا قد وصلا إلى مسكنه .. كان شقة صغيرة من غرفتين .. لم يكن واسعا بقدر كاف .. ولكن الأولاد انطلقوا يتعرفون على المكان .. جلسا وحدهما .. لم يطل بهما الصمت .. عاودت الحديث .

– ألا يعنى حضورى لك شيئا ؟

– لا أستطيع الآن أن أحكم بشيء .. لا يمكن أن أقطع برأى .. ولكنك على أى حال هنا فى بيتك ..

– ألا تصدقنى مرة ؟

– أحب أن أصدقك .. وأخشى أن أصدقك أيضا ..

– صدقنى هذه المرة .. لقد تخلصت من الخدعة الكبرى التى كنت أعيش فيها .. وتبدد ضباب الوهم الذى كان يمنعنى من رؤية الأشياء على نحو صحيح .. ومن الآن بل من قبل ذلك أنا لك زوجة وصديقة .. لقد كان كل ما مر بى دروسا متصلة .. وكان الدرس الأخير هو أصدقها وأقساها .. وقد استوعبته وفهمته واقتنعت به ..

لم تستطع أن تكمل الكلام .. غلبتها دموعها فبكت .. أحس بأن دموعها كانت صادقة هذه المرة .. أمسكت بيده .. دفنت فيها وجهها واستمرت تبكى .. لم تكن هذه أول مرة تبكى فى حضوره .. ولكن بكاءها هذه المرة كان مختلفا .. ظل مترددا قليلا متشككا قليلا .. ولكنه عندما رفع رأسها وتأملها رأى فى عينيها معان لم يسبق له رؤيتها من قبل .. استطاعت هذه المرة أن تلمس قلبه بصدق .. شعر بأنه قد ولدت منها امرأة جديدة .. وأنه يكاد يولد فى قلبه احساس جديد .. لم ير أن ثمة سببا لاجهاض هذا الأحساس .. مد منديله ومسح عينيها ثم ربت على خدها .. ابتسمت وبدت على وجهها سعادة حقيقية لأول مرة .. وفى المساء كانوا جميعا يقومون بجولة فى روما ..

✸



غلطة العمر



غلطة العمر

كان الصباح عادياً مثل كل صباح .. أشرقت الشمس كالعادة .. تثاءبت الدنيا وفركت عينيها وتمطت لتزيح آثار الليل ثم تحرك كل شيء بمقدار .. استيقظ الناس .. فتحت نوافذ وأبواب وشرفات ليتجدد الهواء فى البيوت ، وتعالت أصوات الباعة الجائلين .. انطلق الكبار إلى أعمالهم والصغار الى مدارسهم وجامعاتهم .. امتلأت الشوارع بالحركة والضجيج وعادم السيارات .. تزاحم الناس فى كل مكان وتدافعوا بالمناكب فى الادارات الحكومية ، كل له طلب يريد أن ينهيه وحاجة يريد أن يقضيها ..

شخص واحد فى هذا العالم لم يكن صباحه عادياً .. ذلك هو عزيز أفندى عبد المتجلى .. لقد استيقظ الرجل متأخراً عن موعده ساعة كاملة .. وهذا أمر يمكن أن يحدث قليلا أو كثيراً فى حياة أى إنسان دون أن تكون ثمة مشكلة .. ولكن أن يحدث هذا لعزيز أفندى عبد المتجلى فهو كارثة .. فالرجل فى الواقع يؤدى عمله بدقة والتزام لا يشاركه فيهما أحد آخر .. فهو ليس مجرد موظف حكومى .. وعلاقته بعمله ليست مثل علاقة أى أحد آخر بعمله .. علاقته بالوظيفة فى الواقع لم تبدأ عندما التحق بالعمل ولكنها تبدأ قبل ذلك بسنوات طويلة ، عندما كان بعد طفلا صغيراً فى القرية .. فى أول يوم ذهب به أبوه إلى الكتاب فى القرية المجاورة كان أول لقاء له مع الحكومة .. كان يركب الحمار خلف والده حينما فاجأهما صوت صفارة وصرير عجلات على شريط السكة الحديد .. اجفل الحمار وأصيب هو بالذعر والتصق بظهر والده الذى قال له فى هدوء « هذا القطار الحكومة » .. سأل : « وما هى الحكومة ؟ » قال له أبوه

الحكومة هى التى تحكمنا .. لم يفهم بالضبط ولم يستطع أن يسأل أكثر ولكنه أدرك بحسه الغريزى أن الحكومة هى كيان هائل عظيم .. وإزداد هذا الأحساس عندما ذهب إلى المدرسة وعرف أن كل المدرسين موظفون لدى الحكومة ، وعندما تردد على المستشفى وعرف أن المستشفى ملك الحكومة ، وان الطبيب والممرضات والفراشين والحارس كلهم يعملون لدى الحكومة وهكذا .. لم تكن الحكومة فى نظره مجرد رمز أو كيان معنوى ولكنها تجسدت فى كيان مادى هائل يكاد يلمسه فى كل موظف من موظفيها .. وكم تمنى وهو صغير أن يكبر ويصبح على صلة بهذا الكيان .. وقد أتيحت له فرصة العمر عندما حصل على الثانوية العامة والتحق باحدى الوظائف الحكومية فى المديرية .. ورغم إدراكه بعد ذلك لطبيعة هذا الكيان فإنه لم يستطع أن يتخلص من إحساسه بالمهابة والاجلال له .. وهكذا أدى عمله بكل دقة والتزام مما أهله للانتقال إلى وظيفة أفضل فى الديوان العام للوزارة .. ثم أهله بعد ذلك ليكون محل ثقة رؤسائه .. وفى الواقع فقد كان التزامه ودقته مضرب الأمثال .. فهو يستيقظ فى السادسة صباحاً .. يصلى ويفطر ويمر على بائع الصحف .. يقرأ وهو واقف جريدته المفضلة ثم يذهب الى عمله سائراً على قدميه فيصل قبل كل الموظفين .. ينكفىء على عمله حتى انتهاء موعد العمل فيغادر بعد كل الموظفين .. وعلى امتداد عشرين عاماً لم يطرأ تغيير جوهرى فى حياته سوى أنه تزوج وأن زوجته ماتت بحملها فحزن عليها حزناً شديداً وعزف عن الزواج وعاد وحيداً بعد أن انقطعت صلته بالقرية بموت أبيه وأمه .. وأصبحت وظيفته هى كل حياته ..

هكذا لم يكن شيئاً عادياً أن يستيقظ عزيز أفندى عبد المتجلى متأخراً ساعة كاملة .. والواقع أن ذلك لم يكن باختياره .. فقد كان مطلوباً منه انهاء عدد هائل من الملفات .. ولم تكن العادة أن تخرج الملفات خارج الوزارة .. ولكن نظراً للثقة التى يتمتع بها عزيز أفندى فقد أذن له فى أن يحمل عدداً منها معه إلى البيت .. وقد سهر الرجل عليها حتى أنهاها .. ولكنه تذكر أن ثمة ملفاً أعطاه له المدير يداً بيد وكان يؤكد عدة مرات أنه ملف بالغ الأهمية ويجب ألا يطلع عليه أحد .. ولم يكن عزيز أفندى فى الواقع بحاجة لهذا التنبية .. فهو من فرط حرصه لا يغادر مكتبه إلا بعد أن يضع جميع الأوراق والملفات داخل الأدراج ويغلق عليها بالمفتاح .. ولذلك فقد أمضى عزيز أفندى ليلته فى عذاب .. فهذا الملف بالذات كان من الملفات التى أعطاها أولوية ، ولذلك كان يجب أن يكون معه .. وهو لا يذكر أنه

وضعه فى الدرج .. فأين ذهب إذن .. ظل السؤال يجلده طوال الليل ويحرمه حتى من التفكير فى النوم .. ولكنه مثل كل البشر غلبه النوم فنام .. واستيقظ متأخراً ساعة كاملة .. تخلى عن كل عادات الصباح ، وغسل وجهه بسرعة وصلى الصبح على عجل وأسرع الى الشارع حيث استطاع بعد جهد أن يجد سيارة تاكسى خالية واستطاع بعد جهد أيضاً أن يقنع سائقها بتوصيله .. وعندما وصل عزيز أفندى الى مبنى الوزارة بدا كل شيء عادياً إلا عندما وصل الى الطابق الذى تشغله الادارة .. فقد بدت الدنيا مقلوبة رأساً على عقب .. فعندما دخل من باب الادارة بادره الفراش قائلا بانزعاج : أين أنت ياعزيز أفندى.. المدير العام يسأل عنك .. وفى الطرقة الداخلية بادره أحد زملائه قائلا : ماذا جرى ياأستاذ عزيز ؟ المدير يبحث عنك . تساءل الرجل بانزعاج ان كانت القيامة سوف تقوم قريباً لأنه تأخر ساعة .. احتار ولم يستطع أن يقرر إن كان يدخل مكتبه أولا أم يذهب إلى المدير العام .. وبالفعل .. دخل الغرفة على عجل .. وضع حقيبته .. عدل ملابسه وهم بمغادرة الغرفة بينما حاول أحد زملائه فى الغرفة استمهاله قائلا : « استاذ عزيز .. دقيقة واحدة من فضلك ..» أجابه عزيز افندى متوتراً : « فيما بعد من فضلك .. فيما بعد ».« ولكن » .. قال الموظف .. ولكن عزيز أفندى تركه ومضى فى سبيله .. تبادل الموظفون نظرات منزعجة ثم نطق أحدهم أخيراً قائلا : « أرأيتم .. ستكون كارثة .. فالملف الذى يطلبه المدير العام هو بالذات الملف الذى اخذناه من مكتب الأستاذ عزيز » قال أحدهم مكابراً : « لم نكن نعرف » .. قال نفس الموظف بحدة : « نعرف أو لا نعرف .. لقد تصرفنا خطأ .. الرجل حريص على سرية عمله فما كان لنا وأسراره » .. قال الموظف الآخر : « على أى حال أنت الذى أخذت الملف من المكتب » .. أجاب : « ألستم أنتم الذين أغريتمونى بهذه اللعبة السخيفة .. ماذا سنفعل الآن ، وكيف نوقف الرجل ليعرف الحقيقة ويتصرف ؟..

فى الواقع لم تكن هناك وسيلة لذلك .. تكون لديهم بسرعة إحساس سريع بأن كارثة توشك ان تلم بعزيز أفندى بسبب دعابتهم السخيفة حينما قرروا أن يتلصصوا على أسرار الرجل .. كان يغيظهم بحرصه ودقته فى العمل .. وكان صامتاً دائماً .. كان يشعر أن الضحك وكثرة الكلام يمسان وقار الوظيفة .. ولذلك لم يكن يشاركهم الضحك والكلام .. وقرروا أن يخرجوه عن صمته .. أن يتحرشوا به .. أن يجعلوه ينطق .. ولذلك غافلوه وهو يلملم أوراقه وأخذوا الملف .. وكان فى نيتهم أن يعيدوه له .. ولكن المدير العام كان أسبق منهم .. استدعاه إليه .. ولم يعد ثمة مجال لمداركة الموقف ..

وعندما دخل عزيز افندى إلى مكتب المدير العام رأى فيه رجلا غير الذى يعرفه .. كان يتحدث فى التليفون وكان يوشك على انهاء المكالمة وهو يقول .. « حاضر يافندم .. سنأتى به حالا .. حاضر .. حاضر .. » وضع سماعة التليفون وهب واقفاً فالتقطت عيناه عزيز أفندى وهو يتقدم نحوه وكلمات الاعتذار تسبقه .. ولكن الرجل لم يكن مستعداً لسماع شيء وسأل بضراوة .. « أين الملف يا عزيز أفندى ؟ » .. أجاب الرجل باضطراب شديد : « الملف ؟ نعم .. الملف .. حاضر يا فندم » .. قال المدير بحزم « فوراً » .. قال عزيز أفندى « حاضر يافندم » .. وظل واقفاً لم يستطع أن يستدير ليخرج .. صاح فيه المدير العام .. « لماذا تقف كالصنم هكذا يا رجل ؟ .. اذهب فوراً من أمامى وأحضر الملف » .. تخشب عزيز أفندى وانتابته حالة غباء كبرى .. « حاضر يا فندم ولكنى أردت أولا أن » .. قاطعه المدير « أن ماذا يا رجل .. أذهب واحضر الملف » وظل عزيز أفندى مسمراً فى مكانه باصرار شديد على أن يعتذر عن التأخير .. تحول غضب المدير إلى نوع من الدهشة وهو يرى الرجل واقفاً فى بلاده .. تساءل بشيء من الهدوء المشوب بالدهشة : « .. لماذا تقف هكذا يا رجل ؟ » .. قال عزيز أفندى بارتجاج : « أنا آسف يا فندم على التأخير هذه الساعة » .. انفجر المدير هائجاً .. كاد يطبق عليه وهو يصيح .. « متأخر ساعة أو نصف قرن أو تذهب إلى الجحيم .. فقط أحضر الملف .. أو فانك مفصول » ..

خرج عزيز أفندى مهرولا بين نظرات الموظفين والفراشين .. لم يسمع صوت أحد من زملائه فى الغرفة .. لم يرهم وهم يتدمون اليه .. فتح أدراج المكتب وقلبها واحداً واحداً .. لم يجد الملف .. لم يقل له المدير أى ملف يريده ، ولكن لم يكن ثمة شك فى أنه بالذات هذا الملف الغائب الهام .. لماذا هذا الملف بالذات وفى هذا الوقت بالذات .. لم يكن ثمة وقت للتفكير فى هذا .. كان المهم فى العالم كله وفى الحياة كلها أن يجد هذا الملف ولكنه لم يجده .. هو إذن مفصول من العمل .. وليس بعيداً أن يقدم للمحاكمة .. وأن يقضى بقية عمره فى السجن .. لم يكن قد أتيح له الوقت لكى يعرف ماذا فى الملف بالضبط ولكن المدير عندما أعطاه له قال له : « هذا الملف مهم جداً يا عزيز أفندى .. وقد اخترتك لانهائه لثقتى فيك » .. ولابد أن الذى يتكلم فى التليفون كان يتكلم عن الملف .. ولابد أنه شخصية كبيرة جداً حتى يكلمه المدير بكل هذا الاحترام .. لابد أنه الوزير .. الحكومة شخصياً تطلب الملف .. والملف عندك ياعزيز .. والملف ضاع .. وانتهى كل شيء .. انتهى كل شيء .. الحكومة والوظيفة هم كل

وأهلك وسعادتك وها قد انتهى كل شيء بينكم .. معقول انتهى كل شيء .. معقول ؟

لماذا إذن تعيش ؟ .. لماذا تعيش ؟.. لماذا تعيش ؟.. تعب عزيز أفندى من السؤال ، اسند رأسه على حافة المكتب .. اقترب منه زملاؤه ليعطوه الملف .. نادوا عليه فلم يجب .. اقتربوا منه أكثر .. هزه أحدهم فسقط على الأرض .. كان عزيز أفندى قد مات ..







لعبة التوازن

لعبة التوازن

للذين لم يدخلوا السيرك فى حياتهم نقول إن لعبة التوازن هى أهم ألعاب السيرك على الأطلاق .. وهى أخطرها على الاطلاق .. قد يستطيع المهرج أن يضحك الناس كثيرا بأصباغه وحركاته البهلوانية .. وقد يستطيع الساحر أن يستهويهم بالايحاء بأشياء غير حقيقية .. وقد يقفز لاعب فى دائرة النار ولا يصاب فيصفق الناس .. وقد يتعامل المروض مع الأفيال أو الأسود ويضع نفسه فى الخطر ويستثير الناس .. ولكن أى لاعب من هؤلاء لا يصل إلى مستوى لاعب التوازن .. وأى لعبة من هذه اللعبات كلها لا نرقى الى مستوى لعبة التوازن .. لاعب التوازن هذا يجب أن يتصف بمواصفات جسدية ونفسية لا تتوفر لأى أحد آخر .. فهو عندما يسير على حبل لا يتجاوز قطره بوصة واحدة يحمل عصا التوازن بين يديه يمشي عدة أمتار ولا شيء تحته يحميه إذا سقط فإنه يكون مطلوب منه قدر هائل من التركيز الذهني والمرونة البدنية والثبات النفسى بحيث ينسى ألا شيء تحته يحميه إذا سقط ، ويتصور أنه يمشى فوق شعرة حتى تظل كل حواسه فى حالة انتباه ويشعر فى نفس الوقت بأن عرض هذه الشعرة هو عدة أمتار حتى يتحرك بارتياح ومرونة .. وعليه أن يصل الى الجانب الآخر من الحلبة بقطع النظر عن أن هناك من يراقبونه بعيون جاحظة وأنفاس مبهورة .. وقد يطلب منه أن يحمل بعض الأثقال وأن يسير متخلصا من عصا التوازن وعليه أن يؤدى ذلك بنجاح .. وهذا لا يعنى أنه لا يشعر بالذين حوله بل على العكس فان كلمات الاستحسان والتصفيق من وقت لآخر يبعث فيه مزيدا من الثقة .. ولكن المهم فى جميع الأحوال ألا يميل يمينا أو يسارا فان الميل فى أى إتجاه يعنى السقوط ..

وبالنسبة للاعبين المحترفين فان أرض الحلبة الخشبية لا يغطيها شيء .. والسقوط عليها من هذا الأرتفاع الشاهق يعنى عاهة مستديمة على الأقل أن لم يعن الموت .

وكل الذين يعملون فى السيرك يدركون هذه الحقيقة .. ولذلك فان قليلين منهم هم الذين تستهويهم لعبة التوازن بأهميتها وخطرها .. وأقل القليل هم الذين يستطيعون إستيعاب أسرارها .. والنادر منهم من يجيدها .. وأشد ندرة من يستطيع أن يستمر فى اللعبة طويلا .. وكان مرسال عبد الشكور أحد هؤلاء القلة الذين استهوتهم لعبة التوازن منذ الصغر .. كان قد أدخر من مصروفه القليل بضعة قروش .. ولم يكن يدرى ماذا يفعل بها .. وذات يوم قال الأولاد الكبار انهم ذاهبون إلى السيرك وسألوه ان كان يريد الذهاب معهم .. سألهم إن كان السيرك شيئا يشبه صندوق العجب .. ضحكوا منه وأخذوه معهم .. وفى السيرك اندس داخل أحد المقاعد الخشبية وانبهر بكل ما رآه .. ولكن لعبة التوازن بالذات حفرت لنفسها أخدودا عميقا داخل ذاكرته .. كان لاعب التوازن بردائه الحريرى الأحمر يصعد السلم بتؤدة حتى أرتفع بضعة أمتار .. رآه عاليا جدا وبعيدا جدا فوق كل الناس وقريبا جدا من سقف الخيمة .. ثم رآه يسير ويتطوح ثم يعتدل ويمضى .. وعندما وصل إلى الطرف الآخر ضجت خيمة السيرك بالهتاف والتصفيق .. استهوته اللعبة .. وعندما خرج مرسال عبد الشكور كانت صورة الرجل محفورة فى وجدانه .. ولم يستطع أن ينام ..

وذات يوم كان جالسا مع أقرانه وكان كل منهم يتحدث عن أمنيته فى المستقبل .. وعندما سألوه ماذا يريد أن يكون فى المستقبل أجاب بأنه يريد أن يكون لاعب توازن .. ضحك الأطفال وقالوا انه لا ينفع .. سألهم لماذا ولم يقدم له إجابة مقنعة .. ومع ذلك فلأنه لم يكمل وطلب عملا .. سأله مدير السيرك :

– ماذا تريد أن تعمل ؟

– لاعب توازن .

ضحك صاحب السيرك عاليا وقال :

– هكذا بكل بساطة ؟

أدرك أنه أخطأ فتساءل :

– هل أخطأت فى شيء ؟

قال الرجل متجاهلا سؤاله :

– يا بنى هذه لعبة الرجال .. وليس كل الرجال .. وأنت بعد طفل .. ولا يبدو أنك تصلح لشيء هام .. ومع ذلك فلن نحرمك فرصة العمل ..

نادى الرجل أحد مساعديه وكلفه بايجاد عمل له .. وطار مرسال عبد الشكور من فرط الفرح .. فقد دخل العالم الرحب الذى طالما حلم به .. حقيقة أنه لن يلعب لعبة التوازن فى الوقت الحاضر .. ولكن ثمة أملا فى المستقبل .. لم يشغل نفسه بالتفكير فى إمكان تحقيق هذا الأمل .. ولكنه على أى حال صار قريبا من الشيء الذى يحبه .

وقد واتته فرصة عظيمة للتدريب .. فقد كان عمله فى حظيرة حيوانات السيرك يفرض عليه المبيت فيه ليلا .. وكان بعد أن تهدأ الحركة ويذهب الرواد وينام العاملون يتسلل إلى خيمة السيرك الرئيسية ويحاول أن يتعلم .. كان يطبق فى الليل ما يراه فى النهار والمساء من عروض .. لم يكن يقوى على الوقوف على الحبل فى البداية فكان يتعلق فيه بيديه ويظل ينقل يدا بعد يد .. حتى إذا وصل إلى الناحية الأخرى صفق لنفسه طربا .. وعندما استطاع لأول مرة أن يعبر الحبل بقدميه كاد يجن من الفرح وظل يرقص على الحلبة حتى إذا رآه أحد العاملين وكان يمر بالصدفة ظنه مجنونا فأخبر صاحب السيرك الذى عنفه تعنيفا شديدا .. ورغم هذا التعنيف فقد ظل يواظب على تمريناته ..

وواتته فرصة العمر عندما مرض أحد لاعبى التوازن اللذين يتبادلان أداء الالعاب .. فى هذا المساء تقدم من صاحب السيرك متهيبا وقال :

– أنا ألعب بدلا منه .
– وماذا لو سقطت ودقت رقبتك ؟
– جربنى فقط وانتظر النتيجة .
– الأمر لله .. ليس لدينا اختيار .

وجربوه .. كان اللاعب الأصلى الأول مجربا محنكا له باع طويل فى اللعبة وله شهرته بين الجماهير .. كان يخطو فوق الحبل بخفة الفهد وثبات الفيل .. وكان يؤدى حركات يصعب على أى لاعب آخر أن يؤديها .. فهو يتبادل الكرة مع زملائه وهم على أرض الحلبة .. ويؤدى عرضا فى الكرة برأسه وهو يقف على الحبل .. وكان مرسال عبد الشكور يتابعه ويتعلم منه ويحسده ولكنه فى نفس الوقت يحاول أن يتقرب منه ويتودد إليه ويتعلم .. وعندما علم اللاعب أن مرسال سيشاركه اللعب سأل « من هو مرسال » أشاروا اليه فعرفه وأبدى تعجبه ولكنه

تلطف معه وأدى معه دورا صفق له الناس .. وعندما انتهيا شد اللاعب على يده مهنئا ورفعا أيديهما معا يحييان المتفرجين .. وهكذا قدر لمرسال أن يخطو خطوة لم يكن يتوقعها .. فقد طال مرض اللاعب الثانى وحتى عندما عاد لم تعد صحته تسمح له بأداء هذه اللعبة الشاقة .. وأصبح دور مرسال أساسيا بجوار اللاعب الأصلى ..

وعلى عكس ما يقال من أن الفرصة لا تتكرر فى حياة الانسان مرتين فقد تكررت الفرصة فى حياة مرسال عبد الشكور .. كان العرض المقرر أن يقدمه اللاعب الأصلى جديدا وخطيرا .. كان يتمثل فى أن يقوم بعبور الحبل قفزا على قدم واحد .. ولأن هذا العرض قد أعلن عنه فقد امتلأت خيمة السيرك عن آخره بحيث لم يكن ثمة مكان لمزيد .. وقبل أن يبدأ العرض ومن فرط الثقة طلب اللاعب الأصلى أن يبعدوا شبكة الوقاية من أسفل الحبل .. كما طلب من اللاعبين الآخرين أن يبتعدوا بعيدا فابتعدوا .. صعد اللاعب السلم فى ثبات .. وقف أمام الحبل فصفق الناس فى جنون .. قفز وصفق الناس .. قفز ثانيا فصفق الناس .. قفز من جديد وأصبح فى منتصف الحلبة .. قفز عاليا عالياً حتى لامس برأسه سقف الخيمة ووسع من قفزته .. وعندما هبط لم تلامس قدمه الحبل مرة أخرى فقد هوى إلى الحلبة .. كان الموقف مفاجئا فلم يستطع أحد أن يفعل شيئا .. وعندما نقلوه من الحلبة كان جثة هامدة .. وبات كل لاعبى السيرك فى هم عظيم .. بكوا جميعا وبكى معهم مرسال عبد الشكور .. وأغلق السيرك أبوابه بضعة أيام .. وبعدها عاد يستقبل رواده وقد أصبح مرسال عبد الشكور هو لاعب التوازن الوحيد .. وذات يوم قال مرسال لصاحب السيرك :

- الآن أنا أتحمل اللعبة وحدى .
- أعلم هذا .
- وما هو المقابل ؟
- ماذا تريد ؟
- أريد أعلى أجر .
- لك هذا .
- وأريد نسبة من أرباح السيرك .
- لك هذا .
- وأريد أن يطيعنى الجميع .
- هم أمامك فمرهم بما تريد .. ولكن ..

– ولكن ماذا ؟
– لا تقل لى يوما انك تريد أن تمتلك السيرك ..
– لا أفكر فى هذا فى الوقت الحاضر .

فى مساء هذا اليوم قرر صاحب السيرك أن يعد لاعبين جدد مهما كانت التكاليف .. وبالفعل وقع إختياره على بعض اللاعبين الذين تتوفر لديهم المواصفات التى توحى بالأمل .. وقال لنفسه : « قد يكونون أقل كفاءة ولكنهم بالتأكيد سوف يكونون أكثر ولاء » .. وفى نفس المساء أيضا قرر مرسال عبد الشكور أن يضيف جديدا للعبة .. وبدلا من البِزّة الحمراء والشريط الأسود ارتدى ملابس فضفاضة متعددة الألوان .. قالوا له أن هذه الملابس قد تعوق حركته .. ولكنه لم يبال لكلامهم .. وصعد السلم .. مضى يتبختر فى اتجاه ثم فى الاتجاه الآخر .. رأى نفسه عاليا عاليا .. تفصله عن الحلبة بضعة أمتار وعن المتفرجين أمتار أخرى .. صفق الناس كثيرا .. فامتلأ بالثقة .. وحرص أن يقدم فى كل عرض شيئا جديد ..

وذات يوم قال لصاحب السيرك ..
– أريد أن أكون شريكا .
– ألم أقل لك لا تطلب ذلك يوما ؟
– ولكنى لم أعدك بذلك .
– على أى حال ما زال أمامنا وقت للحديث .. بعد أن تنتهى من عرض الليلة نسهر معا ونتفق .
– ولكنى أريد الآن .
– ألا تستطيع أن تنتظر ساعات ؟
فكر قليلا ثم قال :
– أستطيع .. ولكننا لا بد أن نتفق .
– لن نختلف طويلا .. ولكن عليك أن تؤدى عرض الليلة بكل اتقان .

لم يكن العرض تقليديا .. كان يقتضى منه أن يعبر الحبل برأسه ويديه .. وعندما صعد السلم وقف قليلا وألقى نظرة على المتفرجين الذين صفقوا بحماس .. وقف على يديه .. ووضع رأسه على الحبل .. ومد ساقيه عاليا عاليا .. تدلت أطراف ثوبه الفضفاض على وجهه وعينيه وتشابكت مع رأسه ويديه .. حرك يديه حركات لا هدف لها ثم سقط ..

أغلق السيرك بابه بضعة أيام .. وعندما عاد يستقبل المشاهدين كان لاعب جديد يصعد السلم ويحيى المشاهدين .

✸



الجزاء



الجــزاء

كانت النكتة قديمة ومتكررة وبائخة .. سمعها الموظفون من قبل مئات المرات .. ومع ذلك فقد ضحكوا جميعاً من القلب .. فالطريقة التي يحكى بها شلبى حكاياته أو نكاته تجعل الإنسان يضحك رغماً عنه ... فشلبي لا يحكى حكاية أو نكتة وإنما هو يعيشها وينفعل بها بصدق وهو يرويها ، وهذا الانفعال ينتقل تلقائياً إلى مستمعيه إلى حد أن يشاركوه الاستمتاع بالحكاية أو النكتة ، وبينما يضحك الجميع يظل هو صامتاً ينظر اليهم في بلاهة مما يزيد ضحكهم .. وقد بالغ احد محبيه من الموظفين إلى حد أن قال : « أن احجار الأرض تضحك عندما يمر بها شلبى » .. ومع ذلك فإن أحداً لا يستطيع أن يرغم شلبى على أن يقول نكتة أو يروى حكاية .. إنه هو الذي يختار الوقت ويحدد النكتة .. وهو فى نفس الوقت لا يقبل أن يتلقى هدية من أحد ... فهو لا يضحك بالأجر وإنما هو يعتقد أننا ما لم نضحك فسوف نموت من الغم .. وقد كان هذا الموقف غريباً من فراش فى إدارة لا يحصل إلا على بضعة جنيهات كل شهر .. ومع ذلك فإن أحداً لم يستطع أن يناقشه فيه ، بل تعود الجميع عليه واحترموه خاصة وأنه يخدم الجميع بنفس القدر من الإخلاص ..

هكذا ضحك الجميع من القلب عندما انتهى شلبى من رواية النكتة .. ولكن ضحكاتهم توقفت فجأة عندما فتح الباب وأطل وجه الأستاذ مفتاح عبد الباقي رئيس القسم بقسماته المتجهة ونظارته السميكة وصوته الأجش وهو يقول : « ما شاء الله .. تحول المكتب إلى مقهى بلدى » .. انزوى شلبى جانباً

وصينية المشروبات بين يديه ولكنه مع ذلك ظل متماسكاً ... نظر إليه الأستاذ مفتاح نظرة جمع فيها كل غضبه وقال بحسم : « لو ضحك أحدهم مرة أخرى وكنت أنت السبب فسوف اخصم لك أسبوعاً من مرتبك .. والآن اذهب ولا ترنى وجهك مرة أخرى » ..

خرج شلبى وقد ماتت الابتسامة على شفتيه .. ضيع الأستاذ مفتاح حقه فى أن يضحك مثلما ضاع حقه قبل ذلك فى أن يتعلم عندما طرده ناظر المدرسة وهو صغير بسبب خطأ لم يرتكبه وانما ارتكبه تلميذ آخر .. لم يعطه الناظر حق الدفاع عن نفسه .. ولأنه كان يتيماً وفقيراً لم يكن ثمة من يقف بجانبه .. ورغم أن أمه حزنت فى ذلك الوقت لحرمانه من التعليم فقد فرحت فى نفس الوقت لأن ذلك سيمكنه من مساعدتها على تدبير لقمة العيش له ولاخوته الأربعة .. ورغم صغر سنه فقد كان فى الواقع رجلا .. فقد ساعدها بشكل جاد .. وعندما كبر حرم نفسه من الزواج ونذر نفسه لاكمال تعليم اخواته .. ومع الحاح أمه عليه فى أن يتزوج لأن من حقه أن يعيش فإنه لم يقبل مبدأ الزواج لهذا السبب ولكن بسبب آخر هو أنه يريد من تخدم أمه وقد شاخت وضعفت صحتها ..

خرج من الغرفة كسيراً حزيناً ، ولكن هذا لم يمنع زميله عطية من أن يداعبه بغدغته فى جانبه فانطلق يصرح ويضحك فى نفس الوقت .. وفى نفس الوقت يرقص والصينية بأكوابها على يد واحدة ، ومن العجيب أنه يحتفظ بتوازنها فى يده .. ومع ذلك فقد ظل يسأل نفسه .. لماذا الأستاذ مفتاح قاس بهذه الدرجة ؟ . كان يشعر بشكل خفى أن الأستاذ مفتاح يخفى وراء قسوته الظاهرية قلباً طيباً ونفساً لا تقبل إيذاء الناس .. ولكنه على أية حال عنيف وحاد فى معاملة مرؤوسيه وجاد بشكل قاطع حتى مع رؤسائه .. سأل شلبى نفسه هذا السؤال .. لماذا ؟ وفى الواقع فإن الأستاذ مفتاح سأل نفسه نفس السؤال وأجاب .. لأنى ببساطة لاأحب التسيب .. ولو ترك الحبل على الغارب للموظفين لاختلت الموازين .. وضاعت مصالح الناس .. كان حكماً قاطعاً لم يناقش نفسه فيه طويلا .. ولذلك عندما فاجأ الموظفين فى اليوم التالى يضحكون قرر ان ينفذ ماتوعد به من توقيع الجزاء على شلبى بخصم أسبوع .. وكان موعد انصراف الموظفين قد اقترب ولم يكن مدير الإدارة موجوداً فقرر الأستاذ مفتاح أن يرفع طلب توقيع الجزاء فى صباح اليوم التالى .

عاد شلبى إلى بيته والهم يكاد يقتله .. فهو يبحث عن مصدر يزيد به دخله بضعة جنيهات بأى حال ، ثم يأتيه هذا الجزاء على غير انتظار ليؤجل كل شىء يفكر فيه .. فهو فى الوقت الذى يدفع جانباً كبيراً من دخله فى علاج أمه فضلا عن تربية أخوته قد بدأ تلبية لرغبة أمه يحاول ادخار شىء ليدفع المهر لعزيزة الفتاة التى اختارتها أمه ... وهكذا عندما تناول الغداء واستراح قليلا حمل صندوقه الخشبى بما فيه من سلع بسيطة وانطلق يتسلق عربات الترام يروج بضائعه ونكاته تسبقه والناس يضحكون ، البعض يشترى فى صمت والبعض يساومون قبل الشراء والبعض يساومون ولايشترون ، وآخرون يشاركون فى اللعبة بمجرد المشاهدة وهو يصبر على الجميع ويمازح الجميع ويربت على شعر طفلة صغيرة تبتسم له .. ويقدم لها بالونة ويرفض باصرار أن يحصل على ثمنها والأم تحاول اقناعه بأن يأخذ الثمن .. وفى هذا اللحظة تلاقت العيون .. كان الأستاذ مفتاح شخصياً يحتل جانباً من مقعد بالدرجة الأولى . تلاقت العيون وران صمت معلق حائر .. اختفى ضجيج الترام وتلاشى الناس وتبدد الإحساس بالزمان والمكان .. ولم يعد سواهما .. ظلا صامتين . مضت لحظات ثم عادت الحركة .. حاول الأستاذ مفتاح أن يشيح بوجهه بعيداً .. ولكن شلبى بادره بالتحية .. وفى اللحظة التالية ودون انتظار لتلقى الرد عاود عرض بضاعته وتبادل النكات مع الركاب والجميع يضحكون .. ورغم الجهامة المعتادة لم يستطع مفتاح أن يمنع ابتسامة فرضت نفسها على وجهه لحظات عاد بعدها للتجهم .. ومع ذلك فقد ظل يتابع شلبى وهو يشق طريقه وسط الركاب ولم يتركه يغيب عن عينيه وهو يقفز من الترام ليلحق بترام آخر .. ولم يستطع أيضاً أن يمنع نفسه من الانفعال والصياح عندما لاحظ سيارة تقترب من شلبى وهو يجرى .. واستراح عندما غيرت السيارة طريقها وابتعدت عنه .. وهدأ اكثر عندما رآه قد استقل الترام الآخر .

وفى اليوم التالى كان الأستاذ مفتاح يجلس بين موظفيه وكل منهم يؤدى عمله فى صمت.مد الأستاذ مفتاح يده إلى الزر المجاور .. ودق الجرس خارج الغرفة ودخل شلبى الغرفة مبتسما على عادته .. ولكنه مع ذلك دخل على استحياء .. فقد انكشف سر كان حريصاً عليه . ومن الذى اكتشف السر .. الأستاذ مفتاح شخصياً .. دخل مستحيياً وقلقاً فى نفس الوقت .. فما هى ياترى الخطوة التالية .. دعاه الأستاذ مفتاح لأن يقترب .. دنا منه حتى صار

قريباً من مكتبه .. وتبادلا النظرات .. تكلمت العيون .. قالت كلاماً كثيراً .. تبدلت معالم وجه الأستاذ مفتاح .. بدا رقيقاً طيباً على غير العادة .. بدت الجهامة والقتامة وكأنهما قناع ثلجى اذابته حرارة المشاعر .. ونطق الأستاذ مفتاح برقة لأول مرة منذ عرفه موظفو المكتب « ماذا عندك ياشلبى ؟ » قال شلبى : أمر سيادتك ..

قال : أريد فنجان قهوة ..

كرر شلبى : امر سيادتك يافندم ..

ذهل الموظفون للتغيير .. وازداد ذهولهم عندما هم شلبى بالخروج فاستوقفه الأستاذ مفتاح ليقول له : « قل لنا ياشلبى .. ماهى آخر نكتة » ..





فياسكو

فباسكو

- ١ -

انتهى نادى عبد التواب من ارتداء ملابسه .. شد أطراف سترته القديمة الحائلة اللون وأصلح رباط العنق الصـــارخ اللون .. نظر ملياً فى المرآة المشروخة وتأمل ذقنه الحليقة جيداً وشاربه المبروم .. كان التنافر واضحا بين الألوان .. وكان اللون الأبيض الذى تخلل شعره يتحدى الصبغة الرديئة التى يستعملها .. لكنه لم يلاحظ شيئاً من ذلك .. أرخى يده ونظر إلى المرآة نظرة أخيرة وسأل زوجته :

– ألست رائعاً هكذا ؟

أجابت زوجته وداد مرسى بدون تفكير :

– لست رائعاً فقط ياحبيبى .. أنت تدعو للجنون .

سألها :

– حقاً ؟

أجابت بدون تفكير أيضاً :

– حقاً ياحبيبى .

صمت لحظة قصيرة وعاد يسألها :

– لماذا إذن لا يعترف الناس بهذا ؟ لماذا أنت وحدك التى تقولين هذا ؟

لم يكن السؤال مفاجئاً لها .. فلقد سمعته منه مرات وأجابت عليه ..

ولذلك فقد كانت مهيأة لسماعه والإجابة عليه .. ولذلك قالت مثلما اعتادت أن تقول :

– لأنهم ياحبيبى أغبياء لا يفهمون .. أنا وحدى أعرفك جيداً وأقدرك حق قدرك .. أنت ماسة أصيلة لم يكتشفها أحد غيرى .

شعر بالسعادة وهم بمغادرة البيت .. سألته .

– إلى أين أنت ذاهب ؟

إلى المصور .. سيلتقط لى ست صور فوتوماتون فى أوضاع مختلفة .

سألته فى ضيق مكتوم :

– هل ترى هذه الصور ضرورية ؟

تمهل قليلا قبل أن يجيب :

– نعم .. انها بالغة الضرورة .. فمن المهم أن يحتفظ الإنسان بسجل يقدمه لأولاده .. و ..

لم تدعه يكمل .. لم تكن بحاجة إلى مزيد من الكلام ..

قالت له :

– كما تريد .

انصرف وبقيت وحيدة .. كان الأولاد فى الخارج ... وتمنت ألا يعود أحدهم بسرعة .. كانت تريد أن تبقى وحدها .. فقد بدا كل شيء أمامها قبيحاً مزعجاً .. الحياة نفسها لم تعد أكثر ولا أقل من هم ثقيل على قلبها .. لم يكن رأيها فيه فى الواقع أنه رائع .. ولكنها كانت تريده كذلك .. كانت أمنية لازمتها طويلا .. وحاولت أن تحققها من خلال ترديد كلمات التشجيع له .. ولم يكن هو فى حد ذاته يهمها بقدر ما كان يهمها أن يكون سبباً فى تحقيق روعتها هى : تلك الروعة التى كانت تشعر بها داخلها دائما ولكن أحداً من الناس لم يسلم بها .. ولم تكن هذه الرغبة وليدة اليوم .. بل لم تولد يوم ارتبطت به برباط الزوجية ، وإنما كانت معها منذ أن كانت صبية .. كان والدها المرحوم مرسى البدرى ناظراً لمحطة القطار فى القرية .. وكانوا ينادونه المرسى أفندى .. وكان هذا اللقب يجعله شيئاً مختلفاً عن كل الناس فى القرية .. فهو فى الأصل لم يكن من

أهلها وإنما جاء من المدينة وهكذا كان يبدو هو وأولاده مختلفين عن كل الناس .. وكان الناس فى القرية إما بدون لقب على الإطلاق أو فى أحسن الحالات بلقب شيخ وهذا اللقب قاصر على العمدة وشيخ البلدة والمأذون وخطيب المسجد .. أما الأفندية الآخرون من أبناء القرية فقد كانوا مجرد فلاحين متعلمين .. كان لقب الأفندى يجمع مرسى أفندى مع غيره من الأفندية .. ولكنه مع ذلك كان يختلف عنهم .. فإن أحداً منهم لا يغادر القرية إلا نادراً وللضرورة القصوى .. أما مرسى افندى فقد كان يصطحب اسرته إلى البندر فى نهاية كل أسبوع حيث يمضون العطلة ويدخلون الملاهى ويتنزهزن فى الحدائق العامة وهذا أمر لم يكن فى وسع أى أفندى آخر أن يفعله .

ورغم أنها توقفت فى تعليمها عند نهاية المرحلة الابتدائية فإن وداد ظلت ظاهرة فريدة فى القرية .. كان تعليمها فى حد ذاته خروجاً على المألوف .. فقد كانت البنت الوحيدة فى المدرسة .. وكان كل الأولاد يعاملونها برهبة .. وعندما بدأ الآباء يرسلون بناتهم إلى المدرسة كانت هى قد قطعت المرحلة الابتدائية كاملة وأصبحت متقدمة على الجميع .. وظلت متفوقة بلهجتها البندرية وحكاياتها المتجددة التى تعود بها فى نهاية كل أسبوع وبالمجلات الملونة التى تحضرها من البندر تقص منها صور ممثلات السينما وتلصقها على جدران البيت .. وظلت متميزة بلقب « المدموازيل » الذى أطلق عليها وتمسكت به ولم تسمح لأحد بأن يناديها بغيره .. ولأنها تذهب إلى المدينة كل أسبوع فقد كانت مقصد كل قريناتها من بنات القرية .. التى تريد فستان عرس أو زجاجة عطر أو غير هذا مما تحلم به بنات القرية كانت تلجأ اليها وتهمس فى أذنها بما تريده ... وهكذا كانت محور اهتمام كل القرية .. ولم يكن هذا فى الواقع كل مايشغلها .. كانت من وقت لآخر تسمع أحاديث عابرة بين أبيها وأمها وكلها كانت تدور حول أنها كبرت وأصبحت فى سن الزواج .. وعندما كانت تسأل نفسها عمن تقبل أن تتزوجه كانت تنتابها الحيرة .. فهى لاتريد أن تتزوج فلاحاً حتى وإن كان أفندياً .. وهى فى نفس الوقت غير معروفة لأحد فى المدينة .. صحيح أنها تذهب إلى المدينة كل أسبوع ولكن علاقة أسرتها بالمدينة قد انقطعت من الناحية العملية فإن يوماً ونصف يوم أسبوعياً لا يكفيان لتحقيق الاستمرار للعلاقة السابقة مع المدينة .. وماتحلم به هو أن تتزوج فى المدينة .. فزوج المدينة لا بد أن يكون

متعلماً وموظفاً حكومياً محترماً .. ولكن هذا غير ممكن .. فلا بأس إذن أن يكون شاباً من أسرة عريقة فى القرية .. واحدة من تلك الأسر التى استطاعت أن تبعث بأبنائها إلى القاهرة حيث الأزهر والجامعة .. وقد كان هذا فى الماضى أمراً نادراً لا يحدث إلا كل بضع سنوات .. ولكنها رأت أنه مع تواجد مدرسة إعدادية فى القرية ومدرسة ثانوية فى المركز أصبح هناك عدد كبير من أبناء القرية يدرسون فى الجامعات .. وبعضهم تخرج بالفعل .. واستقبلت القرية القاباً جديدة .. بدأت بالأستاذ وامتدت لتشمل الدكتور والباشمهندس .. ولكن أحداً من هؤلاء لم يتقدم لها .. فبعضهم تزوجوا من زميلات لهم فى الجامعة .. والبعض كانوا مرتبطين منذ البداية ومايكاد الواحد منهم يتخرج حتى تسارع أسرته بتزويجه .. بل إن قليلا منهم ذهبوا إلى الجامعة وهم متزوجون بالفعل ...

وهكذا مضت السنون دون أن يتقدم أحد لخطبتها .. ثم أحيل مرسى أفندى إلى المعاش واحتاج الأمر إلى مناقشات طويلة لتقرير أين يقيمون بعد المعاش .. فقد كان عليه أن يخلى المسكن الذى يقيم فيه والملحق بالمحطة .. وكان رأيه أن يستأجر بيتاً فى القرية يمضى فيه بقية حياته .. كان قد أمكن له خلال سنوات خدمته الطويلة أن يشترى قطعة أرض فى القرية .. وكانت قطعة الأرض والقرية نفسها قد أصبحتا جزءاً من تكوينه .. ورغم اختلافه أسبوعياً إلى المدينة فقد كان يشعر بأنه يرتبط بالقرية أكثر .. ولكنها هى لم تكن تشعر بنفس القدر من الارتباط .. كانت القرية بالنسبة لها مجرد مكان للعيش قادتها إليه ظروف عمل والدها .. ورغم صداقاتها العديدة فقد كانت تشعر بأنه من الممكن أن تقيم صداقات مماثلة فى أى مكان .. ومالت أمها إليها وانتصرا فى النهاية وغادرا القرية إلى مسكنهما المتواضع فى المدينة .. ولكنها هناك لم تجد الراحة التى كانت تنشدها .. فرغم ملابسها المدنية فقد نظر اليها أهل الحى على أنها ريفية نازحة .. لم يكن أحد منهم يوافق أحلامها .. كانوا إما عمالا أو موظفين صغاراً .. ورفضت .. وظلت على رفضها .. ودخلت سناً حرجة .. فهى لم تعد تلك الفتاة الصغيرة التى تعدها الأيام بمستقبل عريض .. ولا هى ذات ثروة تغرى أحداً بالزواج منها .. ولا هى موظفة يتلقفها زميل فى العمل ..

وقليلا قليلا أصبحت أقرب إلى القبول بأى خاطب .. ولكن لم يعد أحد يتقدم لخطبتها .. فقد تناثرت الروايات عن أسباب عدم زواجها ومعظم الروايات

لم تكن صحيحة .. ولكن هذه الروايات على أى حال تركتها نهباً للهموم .. وذات يوم عنفها والدها وحملها المسئولية ، وأعلن أنه سوف يزوجها لأول خاطب يتقدم سواء أقبلت أم رفضت .. ولم تكن فى الواقع مهيأة لمزيد من الرفض .. بل إنها يوماً بعد يوم أصبحت تتلهف على الزواج .. ولذلك لم تمانع عندما تقدم نادى عبد التواب لخطبتها .. وقبلت حتى عندما أخبرهم بصراحة أنه سبق له الزواج وأن لديه ثلاثة أبناء من زوجته السابقة .. وقبلت أن تعيش معه حتى عندما عرفت أنه لا يستقر فى عمل .. وأنجبت منه ثلاثة أبناء .. وتنقلت وراءه فى كل مكان .. وكانت حريصة دائماً على أن ترضيه خاصة عندما توفى والدها ولحقت به والدتها بعد شهور من زواجها .. أصبح نادى عبد التواب وأبناؤه هم عالمها الخاص .. وقد كانت تحلم بأن يكون هذا العالم رائعاً .. وكانت تردد ذلك دائماً لعل الأيام تحوله من كلام إلى حقيقية .

- ٢ -

ذهب نادى عبد التواب إلى المصور .. أجلسه الرجل على المقعد أمام الكاميرا وأضاء المصابيح وبذل جهوداً مضنية فى أن يجعله يجلس فى وضع معتدل .. والتقط صورة .. وبذل نفس المجهود فى الصورة الثانية والثالثة والرابعة .. ففى كل مرة كان لابد أن يضيف شيئاً إلى ملابسه ليبدو فى هيئة مختلفة .. وفى الصورة الخامسة نفد صبر المصور فقال :

- ألا تستطيع أن تساعدنى .. ألا تعرف كيف تجلس معتدلا ؟

اشتاط نادى عبد التواب غضباً .. لم تكن هذه أول مرة فى حياته يسمع كلاماً يقلل من قدراته .. تمالك نفسه وانتهى من التصوير وانتظر حتى ينتهى المصور من تحميض وطبع صور الفوتوماتون الست التى التقطها .. ازداد غضبه على المصور ولكنه ظل صامتاً .. ولم تكن هذه أول مرة فى حياته أيضاً .. فكثيراً كثيراً غضب ولكنه ابتلع غضبه .. لم يستطع فى حياته يوماً أن يغضب غضباً إيجابياً ينفس عنه حتى بكلمة .. كان غضبه دائماً للداخل .. كان يصمت فى الموقف الذى يغضبه .. وعندما ينتهى الموقف يظل أيضاً صامتاً ويجتر الموقف ويفرزه أفكاراً عن قدرته على التسامى على الناس .. وسرعان ما كان يقتنع بأنه أفضل من أى انسان يكون قد أغضبه أو أهانه .. وقد اكتسب هذه المقدرة من

خلال معايشة طويلة للفشل .. وكان أول لقاء له مع الفشل منذ سنوات طويلة عندما أخطأ فى حل مسألة من مسائل الجبر .. كان بعد صغيراً .. وكان أستاذ الرياضة دائم السخرية وكان يوزع نكاته وسخريته على كل التلاميذ ، وكان لنادى عبد التواب النصيب الاوفى من التقريع فهو لم يكن تلميذاً موفقاً بل كان كثير الخطأ .. وفى ذلك اليوم منذ سنوات بعيدة أخطأ نادى عبد التواب فى مسألة سهلة فأشبعه المدرس سخرية . وبطريقة عفوية اهتاج نادى .. ورغم أنه ندم فى نفس اللحظة وبادر إلى التراجع والانكماش إلا أن مدرس الرياضة لم يترك الامر يمر ببساطة .. لم يكن الرجل يميل إلى ايذاء أى تلميذ ، ولم يعرف عنه أنه ضرب تلميذاً فى وقت كان فيه الضرب هو القاعدة .. ولكنه فى هذا اليوم بالذات خرج عن عادته وضرب نادى .. وخرج نادى من المدرسة مطأطىء الرأس .. وعندما حاول زملاؤه التسرية عنه بكى .. وحاول أحد زملائه إزالة ألمه فقال له :

— ليس مهماً أنه ضربك .. لقد فعلت مالم يفعله أحد منا .. لقد تصديت له فى البداية وتحملت الضرب فى النهاية .

أرضاه هذا وأراحه نفسياً .. وعاد فى اليوم التالى إلى المدرسة وكأن شيئاً لم يكن .. وبعد هذا الحادث بسنوات لم يعد نادى عبد التواب بحاجة لمن يقنعه بأنه كان الأفضل ... كان ثمة شيء داخلى يتحرك داخله ويريحه عندما يتعرض لموقف اهانة او فشل .. بعد سنوات من هذا الحادث حصل على الثقافة ولم تسمح له ظروف أسرته أن يكمل تعليمه الجامعى ... ظل لفترة يتعذب ولكنه بعد ذلك أقنع نفسه بأن شهادة الجامعة هى مجرد رخصة للعمل بزيادة بضعة جنيهات .. وأنه يستطيع ان يكون أفضل من خريج الجامعة إذا قرأ وتثقف .. وحاول أن يقرأ قراءات غير منتظمة وفى علوم متعددة .. وبالطبع لم يكن ممكناً أن يجيد شيئاً منها .. وجرب أعمالا عديدة ولكنه لم يفلح فى أى منها بشكل يؤهله للترقى .. ورغم أنه تزوج وأنجب ثلاثة أبناء إلا أن حياته مع زوجته لم تكن هانئة بسبب ضيق الامكانيات .. وكانت زوجته مستعدة لأن تتقبل المعيشة هكذا لولا أنه فاجأها فى يوم من الأيام بقرار ترك العمل وعندما سألته ماذا ينوى أن يفعل أجاب بأنه يريد أن يصبح أديباً .. ورغم أن زوجته لم تكن متعلمة بقدر كاف إلا أنها أخبرته بأنه لا يصلح لهذا الأمر .. فى هذه المرة اهتاج وضربها فقالت له إنه ليس فقط غير صالح لأن يكون أديباً ولكنه لا يصلح كإنسان أيضاً .. فطلقها

وافترقا .. وهكذا ظل هائماً يتنقل من عمل لآخر حتى استقر لفترة فى وظيفة كاتب فى إحدى الشركات .. وكان من حسن حظه أن استمر فى هذا العمل فترة طويلة نسبياً .. تذكر هذا بسرور .. ففى هذه الفترة تزوج وداد ورزق منها بمولوده الأول .. ولكنه عاد إلى حياة التنقل من عمل لآخر ومن مكان لمكان .. ولم يكن هذا راجعاً فى الواقع إلى رغبته فى الترحال .. بل العكس هو الصحيح .. فإن تجاربه الأولى فى العمل وما لقيه من فشل خلالها جعلته يتشبث بأى عمل يتاح له .. وكان من فرط حرصه يخطىء أكثر ولذلك فإن الأمر كان ينتهى دائما بعبارة تقليدية سمعها كثيراً« أنت لا تصلح لشىء » ... ومن كثرة ما سمعها اعتاد عليها حتى أصبحت تكاد تكون عقيدة .. ولكنه وفى دفاع مستميت عن وجوده كان يهرب إلى داخل نفسه تماماً كما حدث يوم ضربه مدرس الرياضة .. وكان فى النهاية يقنع نفسه بأن الناس مخطئون وهو على حق .. ومن بين الناس جميعاً لم يجد سوى وداد .. هى الوحيدة من بين كل الناس التى كانت تردد دائماً « أنت على حق » وكثيراً ما كان يتساءل إن كان ذلك صحيحاً وكانت تجيبه بجزم « نعم يا حبيبى صحيح » .. وهى لم تتوقف عن أن تناديه بكلمة « حبيبى » حتى بعد أن كبر فى السن وأصبحت هذه الكلمة ماسخة بالنسبة لمن هم فى مثل سنهما وظروفهما .

انتهى المصور من اظهار الصور وتحميضها وسلمه اياها .. تأملها واحدة واحدة ولم تعجبه تماماً وأبدى هذه الملاحظة فأجابه المصور :

– هذا ليس ذنبى يا سيد .. فوجهك ليس فوتوجينيك .

– ماذا تعنى ؟

– أعنى أن وجهك لا يصلح للتصوير .

ألا تخجل من أن تقول هذا ؟

– يا سيدى ليس هناك داع للخجل فهذه حقيقة .. وهذا ليس عيباً خطيراً ..

تساءل بغضب :

– كيف ؟

أجاب المصور :

- ياسيدى هكذا الامور .. هناك ملوك لاتصلح وجوههم للتصوير .. وهناك رؤساء جمهوريات يحتاجون لخبراء تجميل حتى تظهر وجوههم بشكل مناسب .

أراحته هذه الإجابة نسبياً ، فقد تساوى مع الملوك ورؤساء الجمهوريات فى شىء .. وتطامنت نفسه وهو يردد ان جمال الوجه مطلوب فى النساء وليس فى الرجال .. وعاد إلى بيته سعيداً وصور الفوتوماتون فى جيبه .

- ٣ -

فى الصباح أصلح نادى عبد التواب هندامه وخرج .. لم يكن مرتبطاً بأى عمل ولم يكن ثمة مايفعله سوى الجلوس فى المقهى حيث يمسك بالجريدة فى يده يطالعها مرات عديدة دون ملل ويظل جالساً نصف اليوم مقابل كوب شاى .. وفى البداية كان هذا يضايق صاحب المقهى .. ولكن الرجل سرعان ماعتاد وجوده وأصبح مستعداً لتقبله حتى دون أن يطلب شيئاً أو يدفع شيئاً .. وفى ذلك الضحى مر ببائع الصحف فاشترى الصحيفة وذهب إلى المقهى .. قرأ الصحيفة مرة وحل مسابقة الكلمات المتقاطعة ثم أعاد قراءة الصحيفة وتوقف أمام خبر مطول مصور عن فيلم جديد .. واستثاره ماقرره المنتج والمخرج والمؤلف معاً من اسناد البطولة المطلقة فى الفيلم لأشخاص عاديين لم يسبق لهم التمثيل .. تساءل ان كانت هذه خدعة يقصد بها الترويج للفيلم قبل إنتاجه أم ترى يكون الأمر حقيقة .. وتساءل .. وماذا يهمنا من هذا ؟ ولم يبق السؤال طويلا بلا إجابة .. بل أنه أجاب بشكل عملى قائلا : « وماذا يضيرنى إذا ذهبت ؟ فلأذهب فليس ثمة شىء أخسره أكثر » .. وذهب إلى مكتب الفن .. وهناك اكتشف أنه لم يكن الوحيد الذى قرأ الخبر .. ولم يكن الوحيد الذى استجاب ... كان ثمة حشد من الرجال والنساء من مختلف الأعمار .. دفع نفسه وسط الزحام محاولا فى نفس الوقت المحافظة على هندامه .. تجاهل صيحات الاستنكار ودفعات المناكب التى تلقاها وأصبح له هدف واحد هو أن يصل إلى باب غرفة المقابلة الشخصية .. لم يكن يعنيه مايحدث بعد ذلك .. المهم أن يصل إلى الباب .. ووصل إلى الباب ووقف مضغوطاً بالزحام يحاول بمنديله القديم أن يجفف عرقه .. وفتح الباب .. وهم بأن يدخل ولكنه تردد .. دخلت مجموعة وخرجت وتبعتها مجموعات وهو واقف كمن خدر تخديراً نصفياً يشعر بما حوله ويدركه ويستجيب له ولكنه لايستطيع الحركة .. وفجأة صرخ فيه أحد الواقفين :

- أنت يامن تقف كالباب .. لماذا تسد الطريق هكذا ؟ ادخل مع الداخلين أو اذهب ولا تسد الطريق هكذا .

حزم أمره ودخل مع المجموعة التالية .. كانوا أربعة رجال .. وما أن تجاوز عتبة الباب حتى وقف مبهوراً .. كانت الغرفة مزيجاً من الظلمة والضوء فى نفس الوقت ... كان ثمة ثلاثة رجال يجلسون خلف مائدة مستطيلة الشكل وأمامهم أوراق يدونون فيها ملاحظاتهم .. وكان هذا القسم من الغرفة يكاد يستغرق فى ضوء خافت حتى لاتكاد ملامحهم تبين .. أما القسم الآخر الذى وقف فيه نادى عبد التواب والآخرون فقد كان يفيض بضوء مصابيح قوية بدت فى نظره كأنها شموس صغيرة .. ورغم مكيف الهواء المركب فى جانب من الغرفة فإن الحرارة المنبعثة من هذه المصابيح قد أسالت عرقه .. أبطأ السير فتقدمه الآخرون .. بقى حائراً أيتقدم أم يلوذ بالفرار .. ظل متردداً طويلا .. وعندما تقدم كان الآخرون قد استداروا خارجين بعد أن صرفهم الرجال الثلاثة .. كاد يستدير معهم ولكن رغبته أجهضت عندما ناداه الرجل الذى فى وسط المائدة :

- تقدم يا ...

تقدم حتى صار فى مواجهتهم .. لم يرهم بشراً .. كانوا كائنات غير عادية .. ولكن تأمله لم يطل كثيراً .. فقد سأله نفس الرجل :

- ما اسمك ؟

تمهل قليلا قبل أن يجيب بصوت يكاد لا يظهر أو يسمع :

- محسوبكم نادى عبد التواب .

قال له نفس الرجل :

- لا تجب إلا بقدر السؤال ..

أجاب باختصار هذه المرة :

- حاضر .

ظل الجميع صامتين والرجل الأوسط يتفرسه .. ارتعدت فرائصه .. شعر كأنه يقف عارياً تماماً تحت مطر العينين .. وفجأة وقف الرجل وترك المائدة ومشى إلى أن صار بجواره .. دار حوله وهو واقف يكاد يسقط من هول

الموقف .. ظل الرجل يدور حوله ثم عاد إلى مكانه وظل من جديد ينظر إليه .. ثم فجأة قال له آمراً ..

- تكلم .

- ماذا أقول ؟

- قل أى شىء .

- أى شىء مثل ماذا ؟

- ارو لنا قصة .

- أى قصة يا سيدى ؟

- أى قصة تخطر على بالك .

استسلم لقدره وتكلم .. لم يكن يعرف بالتحديد ماذا يقول ... ولكنه ظل يتكلم والجميع يستمعون والرجل الأوسط يتجهم مرة وتنفرج أساريره مرة أخرى .. وبين لحظة وأخرى يميل نحو الرجل الأيمن أو الرجل الأيسر ويهمس بكلمات ثم يطلب منه أن يستمر فى الكلام .. ثم فى النهاية طلب منه أن يتوقف فتوقف نادى عن الكلام وتوقف فى نفس الوقت عن الشعور بأى شىء يجرى .. شعر فقط بأنه قد استنفذ كل طاقته البشرية وأصبح مجرد آلة تؤمر فتطيع .. ولكنه مع ذلك استطاع أن يسمع وأن يميز مايقولون .. قال الرجل الأوسط :

- هذا بالضبط هو الرجل الذى اريده .. لو بحثنا فى العالم كله عن رجل بهذا القدر من البلاهة فلن نجد .. انه بالضبط الحالة الوسط بين الإنسان العادى والإنسان المعتوه وهذا هو الذى صورته فى القصة .

قال الرجل الذى يجلس فى اليمين :

- ولكنه إذا كان أبلهاً حقيقياً فلن يستطيع استيعاب الشخصية وأبعادها وأداء الدور .

أجابه الرجل الاوسط :

- اننا لا نريد شخصاً يمثل .. نريد شخصاً يتصرف بشكل طبيعى .. ليس مطلوباً أكثر من أن يحفظ الحركة والحوار وأتركه بعد ذلك يؤدى الدور وسوف ترى .. ولا تنسى أنك المخرج المتخصص فى القصص الصعبة .

أجاب الرجل :

– ولكننى فى هذه الحالة لا أضمن النتيجة .

قال الرجل الايسر :

– يا جماعة .. بصراحة أنا لا أستطيع أن أمول فيلماً محكوماً عليه بالفشل من البداية .

أجاب الرجل الأيمن :

– أنا لم اقصد أن الفيلم سيفشل ولكنه مجرد تخوف .

قال الرجل الأيسر :

– أنا أحذركم من البداية .

قال الرجلان فى وقت واحد :

– لا .. كن مطمئناً .. سينجح الفيلم وسوف ترى .

وقبل أن يخرج نادى عبد التواب من الغرفة كان قد تعرف إلى الرجال الثلاثة .. كان المؤلف كاتباً كبيراً ولذلك كان الاثنان الآخران يقيمان وزناً لرأيه .. كما أن المخرج تحول تدريجياً إلى الحماس لاسناد البطولة المطلقة فى الفيلم إلى نادى .. وهكذا وقع العقد ... وفى نفس الجلسة تسلم نادى شيكاً بالدفعة الأولى من أجره .. وبينما كان فى الطريق إلى البيت توقف قليلا وطالع صورة العقد من جديد وأصابته حالة هى مزيج من السعادة والدهشة والانكار والرعب فى نفس الوقت .. قال لنفسه ان أجره فى الفيلم يساوى مجموع ما حصل عليه من مال طوال حياته مضاعفاً خمسين مرة .. وكاد يغمى عليه .. أما زوجته وداد مرسى فقد أغمى عليها حقيقة عندما عرفت بما حدث .. ومع ذلك ففى المساء جلس يحكى لها من جديد ما حدث وأخبرها بأنهم لم يستقروا بعد على اختيار بطلة الفيلم .. تردد قليلا وأخبرها أنه سيفكر فى الأمر .. وفى الصباح كانا معاً فى مكتب الفن .. ولكن المخرج اعتذر بأن اختيار البطلة قد تم بالفعل ووقع العقد ووعد ببحث اشراكها فى فيلم قادم .

– ٤ –

لم يكن الأمر سهلا كما توقع مؤلف قصة الفيلم .. فقد احتاج المخرج إلى

جهود مرهقة لتطويع نادى .. واحتاج لعشرات التجارب فى بعض المشاهد وشد شعره عشرات المرات وهدد مرات أخرى بوقف العمل .. ولكن على أية حال مرت الأيام العصيبة وأوشك العمل على الانتهاء ... ولم تكن مسألة إختيار اسم فنى لنادى بحاجة إلى مناقشات طويلة فقد حسم المنتج الأمر قائلا : مادمتم تريدون أن يبدو كل شيء فى الفيلم طبيعياً فليبق اسم نادى كما هو بدون تغيير .. وهكذا ظهر اسم نادى عبد التواب فى الإعلانات الكبيرة التى انتشرت فى ميادين العاصمة وشوارعها وفى المدن الكبرى التى سيعرض بها الفيلم فى نفس الوقت .. وقبل أسابيع من عرض الفيلم نشرت صور نادى فى المجلات الفنية المتخصصة وفى الصفحات الفنية بالصحف اليومية مشفوعة بتعليقات تؤكد أنه سوف يكون مفاجأة الموسم وأن الفيلم سيكون من أروع ماشاهده الجمهور .

وفى ليلة العرض الأول تبدد كل قلق لدى المنتج والمخرج والمؤلف .. فقد استقبل الجمهور الفيلم بحماس فَاق أكثر التقديرات تفاؤلا .. كانت القصة جيدة والإخراج رائعاً والمؤثرات المستخدمة إيجابية التأثيـر كما كان الأداء طبيعياً بدون أدنى افتعال .. وبدا كأن الكاميرا تتحرك فى الشوارع والبيوت وتنقل حياة الناس بصدق وكذلك فقد كسرت مجموعة الممثلين الجدد رتابة الاسماء المعروفة التى اعتادها المتفرج .. بحيث بدا كل شيء جديداً وطبيعياً .. ولذلك فقد استجاب الناس للفيلم الذى امتد عرضه بضعة أسابيع .. وتقرر إنتاجه فى حلقات تلفزيونية بنفس مجموعة الممثلين .. وانهالت العروض على نادى عبد التواب وتضاعف أُجره بضع مـرات قبل أن يبـدأ تمثيل فيلم جديد .. وأصبـح اسمه مـادة أساسيـة فى الصفحات الفنية .. وكتب محرر فنى فى إحدى الصحف : « فى الفن كما فى الحياة تمضى الأمور على وتيرة واحدة حتى يكاد يبدو أنه لم يعد ثمة مجال للتجديد .. وفى الفن كما فى الحياة أيضاً تحدث ظواهر غير مألوفة تبدد هذا الوهم وتغير كل المقاييس وتضطر الجميع إلى أن يعيدوا حساباتهم .. ونادى عبد التواب هو الظاهرة غير المألوفة فى دنيا الفن هذه الأيام .. فحتى بضعة شهور مضت كانت علاقة هذا الرجل بالفن هى مجرد قراءة أخبار الفنانين .. ولكنه الآن محور الحركة الفنية العامة .. لأنه قدم شيئاً جديداً لم يسبقه إليه أحد » .. وكتبت محررة فنية أجرت حديثاً معه « لايمكن بسهولة الحكم على شخصية نادى عبد التواب .. أهو فيلسوف فى ثياب انسان عادى .. أم أنه انسان عادى يحمل داخله كل عبقرية

الفن وجنونه ايضاً .. قد يكون هذا أو ذاك .. وقد لا يكون هذا ولا ذاك .. وفى هذه الحالة علينا أن نبحث عن سبب منطقى آخر لهذا الاقبال الجماهيرى الذى لم يسجله أى فيلم آخر » ..

لم يكن فى مقدور نادى أن يتابع كل ما ينشر فى الصحف والمجلات .. كما لم يعد فى مقدوره أن يستمر فى مسكنه الضيق .. فانتقل إلى شقة فاخرة جرى تأثيثها على عجل فى الزمالك كما استأجر شقة فى وسط البلد جعلها مكتباً له .. وكان من الطبيعى أن يكون له سكرتير خاص ينظم مواعيده ومقابلاته .. وانشغل فى تمثيل عدة أفلام فى نفس الوقت .. بعضها انفرد فيها بالبطولة والبعض الآخر استطاع أن يشرك فيها زوجته بفضل ما ناله من حظوة لدى المنتجين والمخرجين .. ولكنه ظل يحن إلى المؤلف الكبير .. كان واثقا من عبقريته كفنان .. ولكنه كان يؤمن بأن اجتماع قدراته الفنية مع قدرة المؤلف سيصنعان عملا رائعاً .. ولكنه فشل فى اقناع المؤلف .. قاله له الرجل بحسم « لقد اخترتك لدور معين اقتنعت بصلاحيتك له .. ولكنى لست مؤلفاً مخصوصاً لأحد بالذات » .. ولم يقبل الرجل أن يسمع منه أى كلام فى الموضوع .. استاء نادى وهز كتفيه وقال لنفسه : «ان مقدرتى الفنية التى أنجحت فيلمى الأول كفيلة بانجاح أى عمل آخر » .

وفى الواقع فإن الفيلمين الثانى والثالث قد لقيا نجاحاً كبيراً .. لم يكن بمثل نجاح الفيلم الأول ولكنه كان نجاحاً على كل حال .. وقد أزال هذا النجاح أى شبهة فى امكان استمرار النجاح ... ولكن نادى عبد التواب لم يكن يعنيه مجرد نجاح الفيلم .. كان يعنيه أن يظل اسمه يتردد على الالسنة وأن تستمر الصحف تنشر صوره وأخباراً عنه .. ولكن هذا لم يكن ممكناً طول الوقت .. ولذلك قرر أن يضرب ضربة فنية وصحفية كبرى .. فقد تعمد أن يسرب أخباراً عن أنه قرر تكوين شركة للانتاج الفنى تشاركه فيها زوجته .. وتوقع أن يثير الخبر ردود فعل واسعة فى الوسط الفنى .. ولكن أحداً لم يهتم لذلك مما سبب له استياء عظيماً .. وقالت زوجته تحاول أن تهون عليه الأمر « لا تبتئس فالناس يحقدون عليك وهذا شأن كل انسان عظيم » .. سألها :

- هل ترين ذلك حقاً ؟

قالت بحزم :

- نعم ياحبيبى .

قال :

- أنت انسانة رائعة حقاً .

قالت :

- وأنت أكثر من رائع ياحبيبى .. أنت تدعو إلى الجنون .

ومع ذلك فقد ظل الوسط الفنى يقابله بالصمت وإن كان هذا لايمنع من أن يجد قصصاً لافلامه المخطط لها ، وأبطالا لهذه الأفلام .. ولكنه كان يطمح لأكبر من هذا .. فقرر أن يكتب بنفسه قصص الأفلام وقرر أن يعرض ثلاثة أفلام فى وقت واحد .. وتوقع نادى عبد التواب أن يحدث ضجة كبرى .. ولكنها كانت ضجة من نوع مختلف عما توقعه ، فإن أياً من هذه الأفلام الثلاثة لم ينجح .. وبينما عرض فيلمه الأول لعدة شهور متصلة وعرضت أفلامه التالية أسابيع عدة فإن أياً من الأفلام الثلاثة لم يستمر عرضه أكثر من الاسبوع الأول الذى كان هو الأسبوع الأخير فى نفس الوقت .. وكتب ناقد فنى محايد « ليس ثمة مانسمى به مافعل نادى عبد التواب سوى تلك الكلمة الرائجة فى الوسط الفنى .. فياسكو .. وإذا كان نادى عبد التواب لايعرف معنى كلمة فياسكو فإننا نقول له أن معناها هو الإخفاق التام ، أو الفشل الذريع » .

كانت الأفلام الثلاثة قد استهلكت كل ماجمعه نادى عبد التواب من مال ... وكانت عليه قروض واجبة السداد .. ولم يكن ثمة مورد يسدد منه .. فكر فى أن يعود يعمل ممثلا لدى أى منتج ولكن أحداً لم يقبله .. كان بريقه قد انطفأ تماماً وجذوته خمدت .. لقد برق كالشهاب .. وكالشهاب أيضاً انطفأ وأصبح رماداً بارداً لانفع فيه لأحد .. وكان جالساً على وشك الانهيار وتساءل :

- ماالذى حدث .. وكيف حدث ؟

أجابت زوجته :

- انها ياحبيبى مؤامرات الكارهين .

قال :

– أنا موشك على الانهيار .

قالت .

– ياحبيبى انها أوهام الحاقدين .

قال :

– الجميع تخلوا عنى .

قالت :

– لاتكن من اليائسين .

سألها :

– أما زال رأيك فى كما كان ؟

قالت :

– نعم ياحبيبى .. أنت انسان رائع .

سألها :

– حقاً ؟

أجابت :

– حقاً ياحبيبى .

ذهب إلى المؤلف الكبير يستعطفه .. كان الأمل يحدوه فى أن يجد مخرجاً مما هو فيه .. أن يشفع له المؤلف الكبير لدى أحد من المنتجين لكى يسند إليه أى دور ، أو يتشفع لدى الدائنين لكى يصبرو عليه وكان المؤلف صريحاً فقال :

– لقد حذرتك .. قلت لك انك لا تصلح سوى لدور واحد تحمست لك من أجله .. ولكنك لم تفهم هذا .. قلت لك أننى لست مؤلفاً مخصوصاً لأحد ولا أؤلف روايات تفصيل على مقاس أحد .. أنا أؤلف رواياتى كما أهوى وأحياناً أترك للمنتج والمخرج اختيار الممثلين .. وفى أحيان أخرى أحرص على اختيار الممثلين بنفسى .

تجرأ وسأل :

– هل أفهم من ذلك أن لك يداً فيما حدث ؟

أجابه المؤلف بهدوء :

– هذا اتهام .. ومع ذلك دعنى أخبرك مرة أخرى بأنه بعد أن أديت الدور الذى اخترتك وتحمست لك من أجله لم تعد تعنينى فى كثير أو قليل .. أصبحت بعد ذلك حراً فى تقرير ما تفعله وقد اخترت وقررت وعليك أن تتحمل مسؤولية اختيارك .

تساءل بمهانة :

ألم يعد ثمة أمل ؟ أليس ممكناً أن أقوم بدور فى فيلم جديد ؟

قال الكاتب الكبير :

– سيكون ذلك تكراراً سخيفاً .. والناس لا يحبون التكرار .. الناس دائماً يبحثون عن الجديد ..

– ٥ –

كأن كل ما حدث كان مجرد دفقة شمس فى يوم شتوى كئيب ، سرعان ماذوت مختلفة وراءها جبالا من السحب والبرد والهموم .. كأنه كان حلماً .. ولكن كيف يكون ذلك حلماً وكل الحقائق المادية تشير بوضوح إلى أن الأمر حقيقة .. النجاح الذى تحقق كان حقيقة .. والاخفاق التام كان حقيقة .. مدرس الرياضيات كان حقيقة ومصور الفوتوماتون كان حقيقة .. والمقهى وصاحب المقهى والخبر فى الصحيفة والامتحان والمؤلف والمخرج والأفلام التى مازالت اعلاناتها فى الشوارع .. اعلانات ممزقة تحمل كلمات السخرية ولكنها حقائق مادية رغم كل شىء .. ومكتب وسط البلد وشقة الزمالك والسيارة وأحلام شراء بيت ريفى مبنى بالآجر .. كل هذه حقائق مادية ... والديون واجبة الأداء أيضاً حقيقية .. وهذه الديون قد امتصت كل الدخل من الأفلام وها هى تنذر بالاستيلاء على المكتب والسيارة وشقة الزمالك .. ولن يبقى شىء سوى بعض الملابس الفاخرة لن يكون ثمة طريق سوى بيعها بأبخس الاثمان والعودة إلى المسكن القديم أن كان ثمة مكان فيه .. قادته خطاه إلى المقهى ولكن لا النادل كان موجوداً ولا صاحب

المقهى ولا أحد اهتم به .. طلب كوباً من الشاى فقدمه له صبى صغير السن دون أن ينظر إليه .. كان مجرد زبون مثل كل الزبائن .. قال : « ماأعجب الدنيا » ..

كان يجلس فى الشرفة مع زوجته وقد خرج الأولاد .. دق جرس الباب .. وجد رجل شرطة ومعه رجل آخر قال انه المحضر وقد جاء لتوقيع الحجز على أثاث الشقة .. اعترض ولم يأبه أحد باعتراضه .. حاول منعهما وصاح فيهما .. فتحت أبواب الشقق المجاورة وأطل الناس منها .. بعضهم مصمصوا شفاههم والبعض هزوا أكتافهم واستداروا فأغلقوا أبوابهم ، وآخرون ظلوا واقفين يتابعون مايحدث دون أدنى انفعال .. صاح فيهم جميعاً ولم يتحرك أحد .. قال ..

– لاأسمح بهذا أبداً .

مضى يقلب الأثاث رأساً على عقب ولكن هذا لم يوقف المحضر فاستمر فى جرد محتويات الشقة .. اهتاج نادى عبد التواب .. شعر أنه أصبح قطعة من النار .. فكر .. نعم .. النار .. لن يوقف هذا سوى النار .. أشعل النار .. ارتفعت ألسنة اللهب فى كل مكان .. دوت نواقيس وصفارات .. حملوه وزوجته بعيداً .. جاء رجال على وجوههم الصرامة والحذر .. ألبسوه رداء طويلا أبيض وقفلوه من الخلف .. نظر إلى مايحدث بابتهاج أطل بنظرة فخورة حوله ليرى الناس يزحمون المكان .. تطلع إلى زوجته وسألها :

– ألا يبدو الأمر رائعاً هكذا ؟

أجابت دون تفكير ..

– بلى ياحبيبى .. انه ليس رائعاً فقط .. انه شىء يدعو للجنون .







نداء القلوب



نداء القلوب

مبكرة كعادتها استيقظت الخالة أم درويش .. وعلى غير عادتها كانت مكروبة فزعة .. توضأت على عجل وشرعت تصلى الفجر .. طاردها الهاجس فتجلدت وأتمت الصلاة .. سألت الله أن يجعل حلمها خيراً واستعاذت به من شر ما تأتى به المقادير .. أتمت صلاتها وجلست وهى مكروبة تستحضر ما تذكره من القرآن .. استدارت يمينا وذكرت اسم الله وتلفتت يسارا وبصقت على الشيطان .. ولكن هذا لم يهدىء من روعها .. فقد رأت فى منامها ابنها الشيخ درويش الذى يدرس فى كلية أصول الدين وهو معلق بين مخالب حدأة تطير به على ارتفاع منخفض وهو يصرخ مستغيثاً بينما هى تجرى خلف الحدأة فتسقط وتتعثر وتقوم وتجرى فتسقط فى الطين من جديد وتقوم فتجرى بينما الحدأة تمضى فى طريقها لا تلوى على شىء بينما ابنها الشيخ درويش مستمر فى الصراخ يطلب النجدة .. أجهدها الجرى فسقطت ولم تستطع أن تقوم من مكانها فظلت ترقب ابنها وهو يكاد يختفى عن ناظريها .. وفجأة ملأ المكان نور أبيض لمحت فى وسطه وجها مشرقاً مثل فلقة البدر تعرفت فيه على المرحوم زوجها والد الشيخ درويش الذى تصدى للحدأة التى ما أن رأته حتى أصيبت بالفزع فتركت ابنه يسقط فتلقاه بين يديه وأوقفه على الأرض وأخذ يربت عليه بحنان .. وبينما هى تبكى ودرويش يبكى اختفى النور ووجدا نفسيهما معاً فى الخلاء .. ثم توقف الحلم وأفاقت وهى مكروبة .. فلم يكن درويش بالنسبة لها مجرد ابن وحيد .. ولكنه حياتها كلها .. لقد نذرته لله ثم

نذرت نفسها له .. كانت قبل أن تقترن بوالده المرحوم سالم درويش عاملة زراعية تعيش على عمل ذراعها .. وكان والده مالكاً بمقاييس القرية .. كانت لديه ستة قراريط وكان لديه محراث وبقرة وحمار وثلاث نعاج .. وكان هذا كافياً لأن يشعر بالزهو فهو يفلح أرضه بنفسه ولا يحتاج إلى أن يكون أجيراً لدى أحد .. وعندما عرفها لم يتردد فى خطبتها من شقيقها عبد الفتاح الشنوانى الذى لم يتردد هو أيضاً فى الموافقة على زواجها منه ولقد واجهت فى البداية أياماً وشهوراً عصيبة .. فبعد شهر بالضبط من زواجها جاءتها زوجة أخيها تسألها :

– هه .. ماهى الأخبار ياحبيبة ؟

– أية أخبار ؟

– ايه .. كأنك لاتعرفين .. أخبار الذرية طبعاً ؟

– لا شىء

– كيف لا شىء ياحبيبة ؟

– هذه أشياء بأمر الله .. ونحن متزوجان من شهر فقط .

– كأنك لست من هذه الدنيا .. المرأة الطيبة تحمل من أسبوع ..من ثانى ليلة حتى .

– وهل هذه أشياء بأيدينا ؟

– بأيدينا أوليست بأيدينا .. يجب أن تشدى حيلك وإلا فلن تعمرى طويلًا .

يومها تشاءمت .. ولكن الأمر لم يكن بيدها .. فقد مضى شهر ثم شهور قبل أن تحمل .. وعندما أخبرت زوجها كاد يطير من الفرح .. ولكن الفرحة لم تكتمل فقد أجهضت .. وتكرر الإجهاض أكثر من مرة .. فقرر سالم أن يبقيها فى البيت مع الحمل الجديد ولا يسمح لها بأى عمل .. وعندما وضعت مولودها ضجت القرية بالزغاريد وأعطى سالم جنيها كاملا للقابلة عندما قدمت له وليده .. ولم يطل بهما الوقت فى مناقشة الاسم الذى يختارونه للمولود الجديد .. فقد قال سالم بحسم :

– نسميه درويش .. فهذا اسم جده .. وهو اسم مبارك .. وذات يوم وكان درويش بعد طفلا بدأ بالكاد يمشى خطواته الأولى .. كانا يجلسان فى الباحة التى تتوسط مجموعة منازل النجع والشمس فى ذلك الضحى من ذلك اليوم الشتوى تدفىء جسميهما وقلبيهما .. فى ذلك اليوم قال لها سالم :

- هل تعرفين ياحبيبة ماذا أتمنى من الله ؟
- ماذا ياسالم ؟
- أتمنى على الله ولا يكثر على الله أن يكون درويش شيخاً .
- .....
- هل تعرفين لماذا ؟
- لماذا ؟
- أقول لك .. انظرى حولك فى القرية .. ألا ترين أن كل الرجال ذوى الأهمية فيها مشائخ ؟ الشيخ عوض عمدة القرية والشيخ حسين شيخ البلدة والشيخ زهران المأزون .. والشيخ مرتضى خطيب المسجد ، حتى صراف القرية هو شيخ .. الوحيد الذى ليس شيخاً هو رفعت افندى ناظر المدرسة .. ولذلك فهو أقل احتراماً مع أنه يعلم كل أولاد وبنات القرية .. فكل المهمين مشائخ وكل المشائخ مهمون .. ولذلك أريد درويش أن يكون شيخاً .. أن يتعلم فى الأزهر .. أحلم به وهو يرتدى القفطان والعمامة ويخطب فى المسجد أو يزوج شبان وفتيات القرية .. وليس بعيداً أن يصبح شيخا للبلد أو عمدة .
- حقق الله لك ماتريد ياأبا درويش .

وكأن هذا الحديث كان وصية سالم درويش .. فان الزمن لم يطل به حتى يحقق هذه الامنية .. فعندما بدأ لدرويش يتردد بانتظام على كتاب القرية ولوح الاردواز فى يده وغذاؤه فى جيبه مرض سالم .. ظل طويلاً يتألم ولا يشكو لأحد .. وعندما انتهى رصيد المقاومة المتبقى لديه ذهب إلى المستشفى .. صرخ فيه الطبيب وقال :
- هكذا أنتم .. لاتعرفون طريق المستشفى الا وأنتم ذاهبون إلى القبر .
اندفعت حبيبة تصرخ فيه :
- لاتقل هذا .. سالم بخير .. أليس كذلك ؟ انه بخير .
قال الطبيب بحزم :
- لاليس بخير .. ويجب أن يبقى هنا فى المستشفى تحت العلاج .
- كيف .. والأرض ودرويش ؟
- هل تريدين حياته أم الأرض وهذا الدرويش ؟
- أريد حياته وليذهب كل شىء آخر فى داهية .

وبقى سالم فى المستشفى وخرجت هى إلى الحقل من جديد بعد أن كان سالم قد أبقاها فى البيت سنوات لم يكن يسمح لها فيها بالخروج إلا للضرورة .. وقامت

بالعمل كما كان يقوم به .. ولكن هذا لم ينقذه .. فقد مضى ذات مساء .. وقبل أن يمضى فى رحلته الأخيرة أمسك بيدها وقال :

- وصيتك درويش ياحبيبة .. لاتهمليه .. أريده شيخاً .. واهتمى بنفسك .

قالت بلوعة :

- لاحياة لنا بعدك .. خذ عمرى وابق أنت معه .. ولكن هذا أمر ليس متروكاً للاختيار .. فقد مضى سالم وبقى درويش وبقيت هى .. وكان عليها أن تكمل المشوار .. وتذكرت أن ناعسة باعت شعرها من أجل زوجها .. ولن يكون شيئاً كثيراً أو غريباً اذا باعت شعرها من أجل ابنها .. ولذلك فقد كانت فرحتها بحجم اتساع السماء وارتفاعها عندما أتم درويش حفظ القرآن الكريم وجاء سيدنا الشيخ عبد الحليم يبشرها .. وبعد أيام كان موكب صغير يضمها هى ودرويش يغادر القرية فى طريقة إلى المنصورة وكان يصحبهما الشيخ عبد الحليم وشقيقها عبد الفتاح الشنوانى .. وقد أمضوا ثلاثة أيام فى المنصورة كانت أشبه بالحلم .. فى اليوم الأول ذهبوا أربعتهم إلى المعهد الدينى .. عبروا الجسر العلوى الذى يعلو شريط السكة الحديدية ومضوا فى طريق ملىء بالعربات والناس والبضائع .. وكان السؤال الذى يؤرقها هو « ماذا سيفعل درويش وسط هذا الطوفان من الناس ؟ » .. وعندما وصلوا إلى مبنى المعهد أصيبت بالهلع فان البوابة الحديدية للمعهد كانت فى ارتفاعها تعلو سطح أكبر بيت فى القرية حتى بيت العمدة حتى بوابة قصر الخواجة لومباردى صاحب الوسية الكبيرة .. أما مبنى المعهد ذات نفسه فانه يمتد أكثر من امتداد شارع داير الناحية الذى يشمل القرية كلها .. فكرت أن تأخذ ابنها وتعود ولكنهم أجلسوها فى مقهى قريب وطلب لها شقيقها كوب شاى وذهبوا .. ظلت تتابعهم بعينيها حتى غابوا داخل المعهد .. وعندما طال بهم المكوث داخله شكت فى أنهم سيعودون .. ولكنهم عادوا والبشر على وجوههم فرقص قلبها فرحاً قبل أن يقول الشيخ عبد الحليم :

- مبارك ياأم درويش .. من الغد سيصبح إبنك شيخاً رسمياً .

- أتقول الحق ياسيدنا ؟

- هو الحق ياأم درويش .

- فلتنم إذا روح سالم فى هناء ..

فى مساء اليوم نفسه ذهب الأربعة إلى السوق حيث اشتروا لسيدنا الصغير الشيخ درويش ملابسه الرسمية .. وبكت وهى تشهد ابنها يرتدى الجبة والقفطان

والشيخ عبد الحليم يحكم رباط العمامة على رأسه الصغيرة .

وفى اليوم التالى دبر له سيدنا سكنا فى بيت قريب من المعهد .. وفى اليوم الثالث اطمأنوا عليه .. وقبل أن تمضى مع شقيقها وسيدنا دست فى يد الشيخ الصغير جنيهين كاملين كانت قد ادخرتهما .. وكانت هذه هى آخر مرة تغادر فيها القرية .. ومنذ ذلك اليوم أيضاً لم تعد تألف أن يناديها أحد باسمها الخاص .. أصبح اسمها أم درويش .. وظلت تتابعه عاماً بعد عام وهو ينمو ويخضر شاربه وذقنه .. وقد تعود الشيخ درويش أن يعود إلى القرية من وقت لآخر .. وفى إحدى هذه المرات ذهب الشيخ درويش ليصلى الجمعة كما اعتاد فى كل مرة .. وكانت جالسة مع زوجة شقيقها تعد له الزاد الذى سيأخذه معه حينما جاءت إحدى جاراتها تصيح :

- أنت جالسة هنا ياأم درويش وابنك صوته يجلجل فى ميكروفون المسجد ؟
- أحق ما تقولين ؟
- أى والله إنه الحق .

بدون غطاء رأسها أخذت تعدو .. رأتها زوجة شقيقها فعدت خلفها .. شاركتها نساء الحارة دون أن يدرين ماذا يحدث .. وعند المسجد الكبير توقفت وكاد قلبها يتوقف وصوت ابنها يجلجل فى الميكروفون وهو أحياناً يتحدث بصوت رخيم وحيناً آخر يغلظ ويعلو وهو يحدث الناس عن الجنة والنار وملائكة الرحمة وزبانية الجحيم .. لم تفهم شيئاً مما يقول ولكنها استطاعت أن ترى الناس فى المسجد يجلسون ويستمعون بلا ملل وقد خفض رؤوسهم وكأنهم يقرون بذنوبهم ويعتذرون عنها بينما هو يذكرهم بأعمالهم السيئة ويطلب منهم الكف عنها حالًا حتى لا يصيبهم عذاب الله .. وشعرت بأنه لا يعظهم وانما هو يملكهم .. وانها هى بالتالى تملكهم .. ولذلك فهى فوق الجميع .. هى أفضل من الجميع .

وقبل أن يتم الشيخ درويش الصلاة كانت قد سبقته إلى البيت وهى تجرى وتكاد ترقص .. وعندما قدمت إلى البيت انطلقت منها زغرودة كانت فيما تذكر أول زغرودة وأول فرحة لها منذ وفاة المرحوم سالم .. ثم عانقته وكأن كل أمانيها قد تحققت ..

بعدها لم يعد أمراً غريباً أن يخطب الشيخ درويش فى المسجد .. فأحيانا يكون

الخطيب مسافراً وأحياناً أخرى يكون مريضاً .. وعندما يتصادف وجود الشيخ درويش فى القرية يأتى من يطلب منه التبكير بالذهاب إلى المسجد لإلقاء خطبة الجمعة وليؤم الناس فى الصلاة .. وأيامها قالت الخالة أم درويش لنفسها .. إذا كان هذا يحدث وهو فى معهد المنصورة فماذا يحدث عندما يذهب إلى الأزهر الكبير .. ولم تستطع أن تجيب على السؤال بالتحديد .. كانت تعرف أنه سوف يصبح أهم من كل الناس فى القرية وأهم من أى شيخ آخر فيها .. فإن كل مشائخ القرية لم يتجاوزوا فى تعليمهم دمياط أو المنصورة .. لم يذهب أحد منهم إلى القاهرة .. ولذلك لم تكن الدنيا تسع فرحتها عندما جاء اليوم الذى تقرر أن يسافر فيه الشيخ درويش إلى القاهرة .. كان قد صار رجلا ولم يعد بحاجة إلى خاله أو إلى سيدنا الشيخ عبد الحليم أو إلى أى أحد آخر لكى يسافر معه .. كان قد أصبح يعرف طريقه .. وكانت واثقة منه .. لقد أمضت خمسة وعشرون عاماً تتابعه منذ بدأ يحبو إلى أن حمل لوح الاردواز إلى أن أتم حفظ القرآن لدى سيدنا .. ثم إلى أن أتم دراسته فى معهد المنصورة وها هي الرحلة تقترب من نهايتها .. أربع سنوات فقط هي الباقية .. يومها تساءلت : هل يعطينى الله العمر حتى أراه شيخاً كبيراً ؟ وقالت لنفسها « ليس كثيراً على الله » ..

بحثت الخالة أم درويش تحت فراشها عن خطاباته .. وجدت خطابا تميزه باستمرار عن غيره .. عبثت أصابعها بالمظروف الممزق حتى أخرجت منه صورته .. ظلت طويلا تتأمل الصورة .. كانت هذه الصورة بالذات محل نقاش طويل بينهما .. لم يكن يرتدى العمامة فى هذه الصورة .. كان يرتدى حلة عادية ورباط عنق .. وكانت ترى فى ذلك إنتقاصاً من قدره كشيخ مبجل .. وقد أعلنت رفضها لارتدائه هذا الزى ولكنه وعدها بأنه لن يدخل القرية أبداً إلا متشحاً بعمامته .. أما هذا الزى فهو للقاهرة التي يقول أن الدنيا فيها قد تغيرت وأن الأزهر لم ينأ عن التغيير فقد صارت فيه كليات أخرى غير أصول الدين والشريعة واللغة العربية .. بل حتى صارت فيه كليات للبنات .. يومها دقت الخالة أم درويش صدرها هلعاً عندما عرفت ذلك .. وظلت مشغولة عليه .. لم يكن يبث الطمأنينة فى قلبها سوى خلف أفندى ناظر محطة قطار الدلتا وناظر البريد فى نفس الوقت .. ورغم أن خلف أفندى كان رجلا مهاباً فى القرية فإنه لم يكن يتردد فى أن يذهب إليها حاملا خطاب الشيخ ليقرأه لها ثم ليكتب الرد ويعنونه : حضرة الشيخ الفاضل درويش سالم درويش .. ويختمه بناء على طلبها :

« من أمكم العزيزة أم درويش » .. لكنها منذ فترة طويلة لم تتلق منه خطابات .. ولم يحدث أن تأخر مثل هذا الوقت .. فهو لم يكتب لها حتى ليقول لها أن الحوالة الشهرية التى ترسلها له قد وصلته .. لابد إذن أن مكروها قد أصابه .. قفز قلبها هلعاً مثل طائر جريح .. قررت أن تذهب لأخيها .. ذهبت إليه وروت له ماحدث .. قال :

– اطمئنى ياأم درويش .. الشيخ درويش رجل ولايخشى عليه .
– ولكن هذا الحلم ياعبد الفتاح .
– ياشيخة .. لاتشغلى بالك كثيراً .
– كيف وظهور الموتى فى الأحلام نذير شؤم .
– لعله لم يأخذ منه شيئاً .
– بل أخذه هو نفسه .. أخذه من يده .
– ياأختى .. تقولين أنه أوصله لبر السلامة .
– لست أدرى ..

ران الصمت برهة ثم قالت :

– انى ذاهبة .
– إلى أين ؟
– إليه فى مصر .
– ولكن ياأختى صحتك لاتحتمل .
– سأذهب إليه ولو مت فى الطريق .
– ألا تنتظرين أياماً حتى انتهى من عمل الحقل فأذهب بدلا عنك أو أذهب معك ؟
– لا ياأخى .. لاتتعب نفسك .. يكفيك ماأنت فيه .. أردت فقط أن أخبرك .

نادى عبد الفتاح على زوجته وأمرها بأن تذبح دجاجتين وتنظفهما وتعد معهما خبزاً وأرزاً للزيارة .. ولم تكن أم درويش راغبة فى شيىء من هذا .. لم تكن تريد أن يعطلها شيىء عن السفر .. مضت ساعتان فى تجهيز الزاد كانت خلالهما تتحرق بالقلق والرغبة فى الرحيل .. وعندما انتهى كل شىء ارتدت رداءها الأسود واتشحت بملاءتها السوداء واكتشفت أنه ليس لديها حذاء فأعارتها

زوجة أخيها حذاء من البلاستيك الأسود وصحبتها إلى محطة القطار .. وحاولت طوال الطريق أن تسرى عنها .. ولكن أم درويش كانت فى عالم خاص من الأفكار .. ترى ماالذى حدث له .. ماالذى حدث له ؟ شغلها السؤال فلم تسمع ترحيب خلف افندى ناظر المحطة فنبهتها زوجة أخيها فردت التحية وهى شبه غائبة عن الجميع .. وعندما صعدت إلى القطار حمل لها خلف افندى سلتها وهو يوصيها بأن تبلغ التحية لمولانا فى القاهرة .

ومع شريط الحقول المتقارب المتباعد من خلال النافذة كانت ذكرياتها تقترب وتتباعد .. المرة الوحيدة التى غادرت فيها القرية كانت معه وهو طفل صغير .. وقبلها لم تذهب أبعد من حدود حقول القرية .. حتى عندما تزوجت وكانوا يجهزون لها تكفل شقيقها عبد الفتاح بالأمر .. سافر إلى المركز مع سالم درويش حيث اشتريا كل شيىء وظلت هى تنتظر .. ولكنها الآن فى القطار وحدها وأمامها سفر طويل .. وهى ذاهبة إلى القاهرة التى فيها ابنها والتى يتحدث من ذهب إليها عن العالم الآخر الذى فيها.. دست يديها فى جيبها لتتأكد من الورقة التى بها العنوان .. كلية أصول الدين .. الأزهر الشريف .. لاشيىء أكثر ..

لكن هذه الورقة لم تكن تصلح لشيىء .. فعندما وصلت القاهرة كان المساء قد حل .. وفى باب الحديد رأت العالم الآخر الذى تحدثوا عنه قطارات هائلة تزعق .. قطارات بدا القطار المار بالقرية إذا قورن بها مجرد لعبة كالتى يشترونها للأطفال من سوق المركز .. وأرصفة المحطة يمتد كل منها مثل حقل كبير يحتاج لمئات الأيدى لبذره .. وألوف الناس بشتى الأشكال والملابس يتحركون فى كل اتجاه .. وهم يتحركون بسرعة وكأن ثمة من يتعجلهم .. تساءلت أين تذهب.. رأت ضابطا يقف ومعه شاب يرتدى زياً رسمياً أخضر .. تعجبت لرؤية الضابط يرتدى زياً أسود وسألت نفسها إن كان قد مات له أحد .. فكل الضباط وجنود الشرطة الذين رأتهم كانوا يرتدون اللون الكاكى فى الصيف أو فى الشتاء .. ولكن هذا الضابط يرتدى زياً أسود .. قالت لنفسها :

أسود أو أبيض .. مالنا نحن .. وذهبت إليه وسألته كيف تذهب إلى الأزهر .. أخذها من يديها إلى خارج المحطة وأشار لها إلى موقف الأوتوبيس وشرع يشرح لها .. ولكنه توقف عن الشرح فجأة وكأنه تذكر شيئاً.. ثم نادى الشاب الذى كان يقف معه قائلا :

- ياأمين .. أوصل الحاجة إلى محطة الاوتوبيس ولاتتركها حتى تركب .

أوصلها أمين الشرطة إلى محطة الأوتوبيس وأركبها وهى ذاهلة .. الآن أصبحت قريبة منه بعد قليل سوف تراه .. وسمعت وجيب قلبها .. فقد داخلها احساس بالخوف من اللقاء .. هل هو بخير فتسعد بلقائه أم أصابه سوء فتكون كارثة .. الأضواء والروائح والضجيج حولها .. وهى تشعر بكل ماحولها ولكنها ذاهلة عنه .. عقلها وقلبها معلقان بالأزهر الشريف .. الأزهر والحسين .. صاح المحصل وتدافع الناس وتوقف الأتوبيس .. دفعت نفسها وسط النازلين .. أخيراً أمام الأزهر .. الأزهر أمامها ومسجد الإمام الحسين على يسارها .. بركاتكم ياأهل البيت .

- ياابنى .

نادت أحد المارة ..وأجابها :

- نعم ياأمى .
- هل أنت من هنا ؟
- نعم ياأمى .
- هل تعرف الشيخ درويش ؟
- من الشيخ درويش ؟
- ألا تعرف الشيخ درويش ؟
- لا .

أصابتها الدهشة .. كيف لايعرف الشيخ درويش وكلهم فى القرية يعرفونه .. لو أنه كان فى بابـ الحديد لكان ذلك معقولا فالمكان غير المكان وبين باب الحديد والأزهر سفر طويل مثل السفر بين القرية والمركز .. ولكن هل يمكن أن يكون هذا الشاب من الأزهر ولا يعرف الشيخ درويش .. ظلت ساهمة قبل أن يبادرها الشاب قائلا :

- عمن تبحثين ياأمى ؟
- عن ابنى الشيخ درويش .

أدرك الشاب الموقف وسألها :

- هل يدرس ابنك فى الأزهر ؟
- نعم وهذا هو العنوان ..

مدت يدها المعروقة واعطته الورقة .. قرأها الشاب وقال :
– ولكن هذا عنوان الكلية وليس عنوان البيت .
– ما الفرق ؟
– الفرق أنه يدرس فى الأزهر ولكنه لابد يقيم فى مكان ما .. ربما فى منطقة الأزهر وربما فى غيرها .. وهذا العنوان لايكفى للوصول اليه .
– كيف ؟!
– هو هكذا .. ولكن تعالى ..سنحاول .

مضى ومضت وراءة .. الى أين لاتدرى .. ولكنها قد قطعت الشوط الأكبر من الرحلة ولم يبق الا القليل .. ولابد أن تحقق هذا القليل ولن تعود أبداً حتى تجده أو تموت على أبواب الأزهر .
– اطمئنى ياأمى .
قال الشاب وهو يدرك قلقها .. ومض بها ألى الأزهر حيث لم يكن سوى الحراس .. وأدرك الشاب أنه قد أصبح التزاما عليه أن يجد لها ابنها .. ذهب معها يسأل أصحاب المكتبات الصغيرة والمقاهى والمطاعم حول الأزهر يسأل عن الشيخ درويش .. ولكن ثمه مئات من الشيخ درويش ..تذكرت أن ابنها قال فيما فال مرة أنه يقيم مع زميل من قرية مجاورة اسمه الشيخ وهدان .. ولكن أحداً لايعرف الشيخ درويش أو الشيخ وهدان .. تعبت من السير فى كل اتجاه وتعب الشاب وقال لها :
– اذا لم نجده الليلة ياخالة .. أتبيتين معنا فآتى بك فى الصباح نبحث عنه .
– بل أبيت أمام باب الأزهر .
– هذا غير معقول فالجو بارد ولن يسمح لك أحد .
– ولكنى لن أغادر حتى أجده .

تجاوبت أصداء أذان العشاء بين المآذن .. دمعت عيناها وهى تردديارب .. وسقطت اعياء على بعد خطوات من مسجد الحسين .. تجمع حولها خلق كثير .. بذل الشاب وآخرون جهداً كبيراً حتى أفاقت ولكنها مع ذلك ظلت جالسة وهى منهارة لاتقوى على السير .. وكان الناس قد انتهوا من اقامة صلاة العشاء وبدأوا يخرجون فرادى وجماعات .. وكانت تجلس وهى تردد : ابنى .. درويش .. بينما انتابت الشاب حماسة غريبة سرعان ماانتقلت لأكثر من شخص وقفوا على أبواب المسجد يسألون عن شيخ اسمه درويش .. وبين لحظة وأخرى يتذكر الشاب أنها

قالت له أن ثمه شيخاً اسمه وهدان فيسأل عنه .
وهى جالسة والأضواء من حولها والظلمة فى عينيها وسلتها بجانبها ومض فى ذهنها سؤال سرعان ماأظلمت الدنيا بعده تماماٍ .. سؤال ظلت تتهرب منه طوال الطريق .. هل مات ؟. كان السؤال .. ودارت بها الدنيا من جديد .. ولكن وسط الطنين الذى فى أذنيها سمعت صوتاً محدد الملامح يقول : أمى .. كان صوتاً كأنه البعث ..هزهافاهتزت وزالت الظلمة واكتسب جسدها المنهار قوة غير مألوفة .. فتحت عينيها لترى الشيخ درويش وقد وجده الشاب من بين المصلين .. بكت وبكى .

وعندما جلسا فى غرفته كان كل منهما فى حالة ذهول وعدم تصديق لمايحدث .. هدأها وأدفأها وقدم لها الطعام والشاى .. وجلس مذهولا وهى تحكى له ماحدث .. وعندما انتهت من الحديث ظل واجماً .. لاحظت وجومه فسألته :
- مالك يا بنى ؟
- عجيب ..عجيب حقاً .
- ماهو العجيب ؟
- العجيب أنه وأنت تروين حلمك كنت تروين نفس الحلم الذى رأيته والذى جعلنى أحضر حقيبتى استعداداً للسفر الى القرية غداً .
- حقاً ؟
- إى والله انه الحق .. نفس الحلم .. نفس التفصيلات بلاأى خلاف .. كأن حبلا خفياً يربط قلبينا ..أو كأن هذين القلبين هما قلب واحد .. يصدر عنه نفس النداء .







سوء تفاهم



سوء تفاهم

كان الأستاذ محمود عبد السلام رجلا طيبا ، هادىء الطباع ، كريم النفس ، وقد جعلت منه هذه الصفات زوجا نموذجيا ، وأبا مثاليا ، وأوصلته إلى أن يكون مديرا ناجحا .. ورغم أن الشركة التى يعمل بها مديرا للشئون الادارية تضم عدة ألوف من العاملين ، فقد أدار عمله بنجاح .. فهو يعامل المرؤسين كأبناء ، ويعامل الزملاء كأخوة ، ويعامل الرؤساء كأصدقاء ، وهكذا كان الجميع يحبونه ويحترمونه حتى وإن خالفوه الرأى .. وفى الواقع فقد كان الرجل يلقى نفس القدر من الحب والتقدير بين جيرانه الذين كانوا يعتبرونه مرجعا يرجعون إليه فى أى مشكلة ، وكان الرجل مع حرصة على استقبال كل من يرغب زيارته لا يسمح بالاختلاط مع الجيران إلا فى حدود معينة يتقيد بها ، ولا يسمح لنفسه ، ولا لأحد بأن يتجاوزها ، فالبيوت أسرار ، وهو لا يريد أن يعرف من أسرار الناس إلا ما يريدون هم إطلاعه عليه ، ولا يريد بأى حال أن يطلع أحد على أسرار بيته لأنه كما كان يردد دائما « ماذا يهم الناس إن كنت أقيم وليمة أو أنى أمضيت الليل بدون عشاء ؟» وكانت زوجته السيدة « كريمة » من جانبها حريصة على الاستجابة لرغبته هذه والالتزام بها . وفى الواقع فإنه رغم عدم وجود معرفة سابقة بينهما قبل الزواج فقد استطاعت بسرعة أن تفهمه وأن تتعاطف معه ، وأن تحبه . ومع الأولاد الثلاثة والبنتين الذين أنجبوهم ، نمت هذه المشاعر على امتداد ربع قرن لتتحول إلى معان يصعب التعبير عنها بالكلمات ، ولكنها أصبحت واقعا هانئا يظلل حياة هذه الأسرة .... ولا يذكر أحد الجيران أنه سمع صوتا يرتفع من هذا البيت السعيد .

ولكن محمود عبد السلام تخلى فى تلك الليلة عن هدوئه ، وتحول إلى كتلة من الغضب فشل تماما فى السيطرة عليها ، وفشلت كل محاولة من السيدة « كريمة » للحد من اندفاعها .. كل مااستطاعت أن تفعله هو أن تسرع هى والأولاد يغلقون الأبواب والنوافذ حتى لا يسمع الجيران مايدور فى البيت ....

فى تلك الليلة الحارة من ليالى شهر أغسطس ، كان الأستاذ محمود عبد السلام يجلس مع زوجته والجريدة بين يديه يحاول قراءتها بعد أن تعذر عليه ذلك فى مكتبه ، وكان الأولاد فى الغرفة المجاورة يشاهدون فيلماً يعرضه التليفزيون ، وكانت السيدة « كريمة » قد انتهت لتوها من اعداد طعام العشاء ، وجلست تكمل بعض أشغال الإبرة حتى يفرغ الأولاد من مشاهدة الفيلم ليتناول الجميع طعام العشاء معاً كما اعتادوا على مر السنين ..

إنتهى الأستاذ محمود من قراءة الجريدة ، وتساءل إن كان وقت العشاء لم يحن بعد . قالت السيدة « كريمة » .. انتظر قليلا .. عندى لك خبر هام ..

تساءل باهتمام قليل .. أى خبر .. ؟

قالت : « عايدة » جاءها عريس ...

تساءل بنفس القدر من الاهتمام ... «عايدة ... من» ؟.

وتساءلت الزوجة باستنكار قائلة : ألا تدرى « عايدة » من .. ؟ عايدة ابنتنا بالطبع .. أثارت الزوجة اهتمامه فقال :

ظننتك تتكلمين عن ابنة أحد الجيران ، فلم يحدثنى أحد بشأنها أم ترى تقرئين الغيب ؟

قالت : « لا غيب ولا شيىء ، ولكن سمير زميلها فى الكلية سوف يأتى إليك مع أبيه ، فقد فاتحها واتفق معها » و ... ولم يدعها تكمل حديثها .. فقد هدوءه ، وتحول الاهتمام إلى غضب وقال : تقولين فاتحها ، واتفق معها .. ثم سوف يأتينى .. لماذا ؟ .. لكى أبصم بالعلم .. ؟

قالت : ليس الأمر هكذا .. ولكن ، لم يدعها تكمل وقد أصبح الغضب عاصفة ...

أهكذا ؟ أهذه نهاية التربية والثقة ؟ ابنتى تأتينى بعريسها فى يدها .. ولم يستطع أن يكمل فقد عجزت الكلمات عن التعبير عن الحالة التى وصل إليها فلم

يكن الأمر مجرد مفاجأة مذهلة .. بدا كارثة حلت به دون انتظار .. كان فى العشرينات عندما تزوج .. ورغم أن أباه عوده على أن يتخذ قراره بنفسه إلا أنه احتفظ لنفسه بحق اختيار زوجة ابنه .. ومع اعتزازه هو برأيه واستقلاله بحياته فانه رحب باختيار أبيه وأمه .. ولم يعلق سوى بقوله « الخيرة فيما اختاره الله » . وفى الواقع فقد كانت « كريمة » فتاة رائعة أصبحت منذ اقترانها به زوجة نموذجية ، ثم أما مثالية ، وقد حاولا معا تنشئة أبنائهما على أفضل الطباع .. وكانا يركزان بصفة خاصة على البنتين .. وقد أعطى حرية الاختيار وكان المقابل فى الواقع طاعة كاملة لكل مايطلبه أو يقترحه ، وعايدة بالذات لأنها الكبرى بين البنين والبنات كانت تبدو أختا صغرى وليست مجرد ابنة ..

تذكر فى لحظة مالاحظه خلال الأيام الأخيرة من تحول فى طباع عايدة .. كيف فقدت شجاعتها المعتادة .. وكيف كانت تبدو شاردة فى أحيان كثيرة .. وكيف كانت تتهرب منه أحيانا وتبدو فى أحيان أخرى وكأن لديها مشكلة أو أنها تعانى من شيىء تريد أن تفيض به لأحد .. ولأنه اعتاد على المصارحة وعودهم عليها ، فلم يعر ذلك اهتماما كبيرا ، معتمدا على أنه لو كان شيء من ذلك صحيحا لحدثته به دون حرج .

المسألة إذن قديمة .. طبخة مطبوخة باشتراك الأم .. وازداد هياجه .. وباتت الأسرة كلها فى نكد لم يفرخ مع الصباح .. بل على العكس .. فى الصباح أصدر الأستاذ محمود عبد السلام قرارا بألا تذهب البنت إلى الكلية .. وعندما عاد من عمله فى المساء لم يكن قد أنجز شيئا يذكر فقد ظل طوال اليوم يضرب أخماسا فى أسداس محاولا أن يفهم الذى حدث وان يجد له تفسيرا أو علاجا ..

ورغم مرور أيام على هذا الانفجار ، وامتثال عايدة لأوامر أبيها بعدم الذهاب إلى الكلية فإنه لم يهدأ ، بل زاد غليانه ... فقد كان يدرك أنه لن يستطيع من الناحية العملية أن يمنعها من مواصلة الدراسة .. وأن ذهابها إلى الجامعة معناه أنها سوف تلقى هذا الوغد الذى سمح لنفسه أن يخطبها من نفسها متجاهلا وجوده كأب ومتجاهلا حقه فى أن يقبل أو يرفض أن يزوجها وحقه — إذا قبل — أن يكون قبوله مبنيا على التأكد من صلاحيته كزوج لها .. وكان السؤال هو كيف يمنع هذا اللقاء ؟

ذهب إلى الجامعة فى محاولة لأن يرى هذا الشاب ليؤدبه ، ولكنه لم يجده .. ذهب إلى بيته .. فقيل له انه يتدرب على أعمال الترجمة فى إحدى الصحف .. ذهب إلى مقر الصحيفة وسأل عنه .. فقيل له انه فى مهمة .. سأل عن مكان المهمة .. فنظر إليه الناس بدهشة واستنكار . غادر المكان وهو يشعر بالنقمة .. وقال لنفسه انها لابد ستراه .. وهيأ نفسه لمراقبتها .. وصح ما توقعه .. قالت له زوجته فى المساء ان البنت تود الخروج للترويح عن نفسها .. وافقها وارتدى ملابسه على عجل .. ذهبت إلى كازينو على النيل فذهب وراءها ، دخلت ..تردد قليلا ثم دخل .. وجلست إلى إحدى الموائد .. اختار مائدة قريبة تخفيها الاشجار .. وبعد دقائق جاء غريمه .. فكر فى أن يهب ليطبق عليه ، ولكنه كبح جماح نفسه جلس يستمع .. كان يغلى وهو يسمع سمير يبدى قلقه عليها ثم يسمع منها تفصيلات ما حدث .. وفى النهاية قال لها « يبدو أن المسألة عولجت بشكل خاطىء .. فلم أكن أقصد أن ينتقل الخبر إلى والدك بهذا الطريق .. لقد أردت فقط أن تعرفى رغبتى وأن أعرف موقفك .. أما الخطوة التالية فقد كانت زيارة أسرتك ومعى أبى وأمى لخطبتك بالطريقة التى تليق بنا .. ولكن يبدو أن فرحة الأم هى التى دفعت أمك لإخباره بهذا الشكل .. ومع ذلك فلدى الامل .. « قالت » لا يبدو أبى مستعدا للحديث فى هذا الشأن ولو جاءه العالم كله » .. تساءل سمير : « وفى هذه الحالة ؟ « قالت » : لست أدرى ولكننى لا أفعل ما يخجل أبى » ..

تساءل من جديد : ألا تتزوجيننى .. ؟

قالت بصوت باك .. « لا أفعل ما يغضب أبى » ..

قال بصوت يفيض بالحب والاحترام : « لقد كنت حتى هذه اللحظة أحبك .. الآن أحبك أكثر وأحترمك .. ولو أنك قلت غير هذا لصدمتنى .. وأنا أعرف أن مشكلتنا معقدة ولكن لن أعدم وسيلة للقاء أبيك والحديث معه حتى ولو طردنى .. أريد فقط أن أوضح له الأمر وحتى لو طردنى فسوف أظل أقدره لأنه أبوك » ..

كانت الكلمات تتدفق من فمه بصدق وجدية يوحيان بأنه إنسان يعرف طريقه وعازم عليه .

تطامنت نفس الأستاذ محمود عبد السلام ..وأفرغ غضبه دقيقة بعد أخرى ..

وعندما انتهى الحديث شعر بالفراغ كجندى مسرح من الخدمة العسكرية بعد أن عبىء طويلا للقتال . لم يكن ثمة ما يمكن أن يقول أو يفعله .. مشى على قدميه طويلا فى محاولة لتركيز تفكيره .. ولكنه ظل فارغا .. جلس فى سيارته طويلا يتأمل مياه النيل تتدفق قادمة بعد أن قطعت ألوف الأميال ذاهبة فى طريقها من الجبل إلى البحر غير عابئة به ولا بالأضواء الملونة المنعكسة عليها ..نظر إلى السماء ورأى النجوم بضوئها المتلألىء لا يملكه أحد فى الكون إلا الله . تساءل عن معنى أن يكون الانسان أبا .. ظل سؤاله حائرا بلا إجابة ..

عندما عاد إلى البيت كانت عايدة تجلس مع إخوانها ، يشاهدون التليفزيون .. كانت تجلس مهمومة متكورة على نفسها .. ناداها .. ولأن أحدا لم يلاحظ التغيير فى صوته فقد توقع الجميع عاصفة جديدة .. هبت واقفة .. دعاها لأن تقترب منه .. ربت على شعرها طويلا قبل أن يقول لها .. « اخبرى سمير أنى أريد أن أراه » .







العملاق

العملاق

رغم أنه كان ضخم الجسم إلا أنه كان موضع سخرية الناس .. فقد كان ساذجا إلى حد البلاهة .. الامر الذى جعله محل استهتار الكبير والصغير من أهل القرية .. كان عملاقا .. ولكنه عملاق أبله .. وكان مع ذلك طيب القلب نقى النفس مؤمنا بقدر مايسمح له عقله لاستيعاب أمور الدين .. وكان يحب الخير ويفعله بقدر ماتسمح به إمكانياته التى لم تكن تسمح بالكثير ..

أدرك ذلك وشعر به .. وتألم .. أدرك أنه جاهل وأنه غبى .. ولكنه لم يعرف طريقا للخلاص من هذا الجهل وذلك الغباء .. كان يعرف أن كلام الناس عنه إنما هو سخرية منه .. ولم يكن يملك إلا أن يصمت .. فلم يكن قادرا على الرد .. وإذا فاض به ورد على أحد الناس جاء رده سقيما عقيما .. وجاءت كلماته شوهاء مثيرة لسخرية أكبر .. أدرك ذلك .. واكتفى بأخف الأضرار .. الصمت ..

تمنى أن يتخلص من هذا الغباء .. لو استطاع ذلك بطريقة ما .. فلن يقدر أحد بعد ذلك على استغلاله أو إهانته .. ولما سمح لأحد بأن يكلفه بنقل السباخ من البيت إلى الحقل أو القيام بغسل أجساد الجاموس والأبقار .. تلك الأعمال التى لايمارسها إلا الأطفال الصغار .. ولااستطاع أن يحصل على أجره كاملا مقابل أى عمل يقوم به .

لاحظ مرة أن الناس يضحكون من « الزلمة » التى تميز وجهه .. وهى قطعة من اللحم تتدلى أسفل ذقنه كإصبع يشير إلى وجهه .. وضاق بتلك الزلمة ..

وفكر فى التخلص منها .. حاول أن يقطعها .. ولكنها لم تنقطع .. فقط سال منها دم كثير حاول أن يوقفه بالتراب ولكنه لم يستطع .. وذهب إلى المجموعة الصحية .. وهناك نظر إليه الطبيب قليلا .. وعلى أذن الطبيب مال التومرجى وهو من أهل القرية وهمس ببضع كلمات .. وضحك الطبيب وهو يقول له إن « الزلمة » لا يمكن أن تقطع .. وحتى لو قطعها فهى كالعنب الشيطانى إذا قطعت فإنها ستعود للنمو ..

حاول أن يستسلم لقدره .. ولكن الناس لم يتركوه فى سلام .. كان يؤمن أن ما هو عليه قضاء من الله .. وإذا أراد الله شيئا فلا راد لقضائه .. ولم يكن أمامه إلا أن يتقبل هذا القضاء باستسلام ..

كانت تقام فى القرية أفراح .. وكان الأغنياء يأتون بفرق موسيقية من البندر .. وكان وجوده فى كل حفلة من حفلات الزواج يعتبر « نمرة » لا يمكن الاستغناء عنها .. وفى البداية .. بداية أى حفل كان يشعر بالخجل .. ولكن ما ان تبدأ الموسيقى حتى ينجلى ويأخذ فى الرقص والغناء ..

فى بعض الساعات كان يشعر بأنه لا ينتمى لأى فصيلة من المخلوقات .. حقيقة إنه إنسان .. جسمه مثل أجسام الناس .. وله عقل مثل عقولهم .. وهو يعمل ويذهب إلى المسجد للصلاة .. ولكن الناس ينظرون إليه كما لو كان مخلوقا غريبا .. وهو لم يكن يستطع أن يعتبر نفسه حيوانا .. ولم يكن الناس أيضا يستطيعون أن يعتبروه هكذا .. وهكذا ظل معلقا .. ولذلك كان يقضى ساعات طويلة وحده داخل « الزريبة » أو فى الحقل وليس معه إلا الأبقار والحمار .. وكان يتبادل مع الحمار نظرات جعلته يشعر وكأن الحمار يعطف عليه .. وشعر بحب نحو الحمار .. وأصبح الإثنان صديقين .. وكم من مرة لقى الإساءة بسبب عدم تحميله الحمار أحمالا كبيرة .. ولكنه لم يكن يبالى .. فقط يكفيه أن الحمار فى صحة جيدة .. وبمرور الوقت أصبح الحمار هو كل عالمه الذى يعيش فيه ..

— ٢ —

فى أحد الأيام كان يسير على الجسر .. وهناك كان الحاج أبو رفاعى ومعه بعض الناس .. وكان الرجل يقف معهم مبديا إعجابه بمحصول القطن عندما شاهده .. وناداه .. وعندما ذهب إليه قال الرجل كلاما لم يستطع هو أن يفهمه .. وضج الواقفون بالضحك .. وشعر بالغضب .. ولكنه تمالك نفسه ..

وعاد الحاج إلى الكلام والحاضرون يضحكون مع كل كلمة .. وانفجر غاضبا « ماتخلى عندك ذوق يابا الحاج » .. ولم يخل الحاج عنده ذوقا .. وانما أهوى على وجهه بصفعة قوية .. وقف لحظات مشدوها .. ثم اندفع نحو الحاج والشرر يتطاير من عينيه .. وذعر الحاج وترجع إلى وراء .. وقبل أن يدرك أحدهم ماحدث كان هو قد طرح الحاج أرضا وانهال عليه ضربا وركلا .. وبصعوبة كبيرة استطاع الناس أن يفصلوا بينهما .. وعقدوا ذراعيه وأبعدوه عن المكان .. وجلس وحده .. شعر بالحزن .. وبكى .. ثم نظر إلى السماء فى صمت .. وسالت الدموع على خديه .. مسح الدموع بظهر يده وجلس حزينا ..

فكر فى أن يترك .. لايمكن أن يستمر فى العيش مع هؤلاء الناس .. ربما استطاع أن يجد اناسا آخرين فى قلوبهم رحمة .. لايمكن أن يكون كل الناس هكذا .. إنه لا يظلم أحدا .. ولا يؤذى أحدا .. وسيكون سعيدا إذا استطاع أن يترك هؤلاء الناس .. ولكن .. كيف .. نعم كيف .. فكر .. وإلى أين يذهب .. إنه لايعرف شيئا خارج حدود القرية .. وهؤلاء الناس ربما كانوا أحسن من غيرهم .. و « اللى تعرفه أحسن من اللى ماتعرفوش .. ودا أمر ربنا ياولدى .. ومابايدناش غير الصبر على حكم الله » .. فوق هذا فهو لم يكن يستطيع أن يترك الحمار .. ولا يستطيع أن يأخذه معه .. لا يستطيع أن يتركه لأنه يحبه .. ولا يستطيع أن يأخذه معه لأنه لا يملكه ..

فكر مرة فى أن يسرق الحمار ويهرب .. سيذهب إلى المدينة .. ولكن .. ماذا يفعل به فى المدينة ؟ تساءل .. إن الناس هناك يركبون حناطير مثل حنطور العمدة وأحسن ألف مرة .. ويركبون أيضا « العربيات » .. ورغم أنه لم يكن يعرف ما هى هذه « العربيات » إلا أنه يدرك أنها أشياء أحسن من الحنطور بكثير .. وبجانب هذا فصاحب الحمار « راجل غلبان برضه » .. ثم إن « أنا أسرق ؟ » .. أنا أسرق ؟ ياخبر اسود ياناس » .. ورفض الفكرة ..

طوى قلبه على أحزانه وهجر الناس .. وزادت فترات صمته وطالت .. ولم يعد يرى فى القرية إلا فى الطريق إلى المسجد أو الحقل ..

ـ ٣ ـ

وكان شتاء .. شتاء قاس لم تشهد القرية مثله فى برودته التى تهرى الأبدان وتجمد الأطراف .. وفى أعاصيره التى تطيح فى طريقها بكل شيء ..

وبينما كان الناس داخل بيوتهم يلتفون داخل الأغطية أو يجلسون أمام مواقد النار كان هو يتجول فى الشارع حيث لاشىء هناك إلا هو والسماء .. كان يمارس شعورا بلذة حيوانية طاغية وهو يرى الناس داخل بيوتهم عاجزين عن الخروج لقضاء مصالحهم .. بينماهو يروح ويغدو فى الشارع بلا مضايقات ولا شتائم .

تمنى وهو يسير فى الطريق لو صرخ بأعلى صوته « موتوا يا كلاب » كان يشعر أن السماء تنتقم له .. وكان ينظر إلى السماء فى صمت .. وكان وهو فى ركنه المنعزل بالزريبة ينظر من فتحة السقف الى السماء لعله يرى الله ويبثه شكواه .. كان يدرك انه مظلوم .. وأن مصدر ظلمه هو خلقته .. كان يريد أن يعرف لماذا خلق هكذا .. كان يفعل هذا فى أى وقت .. سواء عنده النهار أو الليل .. وسواء الليالى المقمرة التى تفيض فيها السماء بالصفاء فى نور القمر .. أو تلك الليالى المظلمة التى لا يبدو فيها من فتحة السقف إلا بضعة أنجم .. وفى بعض الحالات كان يسمع صوتاً يأتى من بعيد .. ولكنه واضح وقوى .. وكان هذا الصوت يقول دائما ان الله يمهل ولا يهمل .. وان الله لاينسى أحدا .. ولا يغفل عن شىء ..

وشعر بأن السماء تنتقم له .. فلأول مرة تمتلىء الطرقات وأسطح المنازل بغطاء من الثلج .. ولأول مرة كانت العواصف شديدة لدرجة أنها تقتلع الأشجار وتجعلها تطير فى الهواء وتهوم كأرواح شيطانيه مجنونة ..

— ٤ —

وكانت ليلة مظلمة باردة .. وكانت الريح تعول فى حزن .. وقرب منتصف الليل دوى فى ركن من أركان القرية صراخ .. ثم ساد الصمت لحظات .. وعاد الصراخ من جديد .. وتجاوبت الصرخات .. وأطل من أحد الأبواب وجه : « ايه اللى جرى ؟ » .. وفتح باب آخر وأبواب .. وأطل الناس يتساءلون عما حدث .. ثم عادت الصرخات مدوية فزعة .. وترددت همسات .. ثم تحول الهمس الى صراخ .. وترددت فى جنبات القرية أصداء صفارات الخفراء .. ومرت لحظات وأضاء الافق بنور أحمر دموى يروح ويجىء .. وفتحت الأبواب كلها .. ونسى الناس البرد .. وخرجوا يجرون فى الشوارع ويتصايحون .. وخلف الرجال خرجت النساء بأيديهن جرار ماء ومصابيح .. وأضاء أكثر من

« كلوب » وكانت هذه الكلوبات تظهر وتختفى فى لحظات ..

وانتقلت القرية كلها إلى مكان الحريق .. كان أحد المنازل يشتعل ..والسلالم قد وضعت على الحوائط وعليها رجال يتبادلون جرار الماء .. ونساء هنا وهناك تجرين .. بعضهن إلى الترعة والأخريات قادمات من هناك حاملات جرار الماء .. والرجال يتدافعون والدخان الأسود يتصاعد من القش المحترق .. والرياح تحمل اللهيب تصفع به وجوه الرجال فيتراجعون .. وتتراجع النار فيهجمون عليها فى يأس .. وأكوام هائلة من القش والحطب على سطح المنزل والأسطح المجاورة أخذت النار تمتد اليها .. كان يجلس فى ركنه المنعزل من الزريبة وأمامه نار ..وهو يفرك يديه وينظر ألى السماء .. ودخلت ابنة صاحب البيت وبيدها مصباح .. كانت تبحث عن جرة ماء .. ورأته جالسا .. وطلبت منه أن يذهب إلى مكان الحريق ليساعد الرجال ولكنه هز رأسه رافضا .. « وأنا مالى ؟» ثم « انما الحريق فى دار مين ؟ » .. « فى دار الحاج ابو رفاعى » .. « طب خليه يتحرق بقى » .. شعر بالتشفى .. دار ابو رفاعى تحترق .. الرجل الذى فعل ما لم يفعله أحد فى القرية .. حقيقة أنهم فى القرية كانوا يسخرون منه .. ولكن أيا منهم لم يصفعه على وجهه مثل الحاج أبو رفاعى .. ليحترق إذن ..

ولكنها اصرت على أن يذهب .. وأصر على الرفض .. وقالت ان القرية كلها مهددة بأن تحترق وأن النار قد امتدت إلى أكثر من بيت .. ولم يهتم « وأنا مالى » .. ماتتحرق .. وخرجت وهى تدعو عليه بالموت وتهدده بالطرد ...

— ٥ —

بقى وحيدا .. وببلادة مسح بصقة ألقت بها فى وجهه .. وجلس يستدفىء .. ثم هم بالقيام .. وفى تكاسل وقف وكلماتها ترن فى أذنيه « النار فى كل حته » .. قد تمتد إلى القرية كلها .. وهناك نساء وأطفال .. كثيرا ماآذوه .. ولكنهم « غلابة برضه » .. وقد تصل إلى الإنسانة التى بصقت فى وجهه منذ لحظات .. وهى الانسانة الوحيدة التى كانت تعطف عليه .. والتى ابتسمت مرة لكلمة قالها .. ورأى الحمار ينظر إليه .. وخلع جلبابه .. وجرى إلى مكان الحريق ..

كان الناس جميعا مشغولين باطفاء الحريق .. كانت الطبيعة ضدهم .. الريح تغير اتجاهها كل لحظة .. وكان الرجال يتبادلون جرار الماء وهم يتصايحون ..

ويخرجون النساء والاطفال المحاصرين وهم يصرخون .. ويسحبون البهائم من الزرائب بعيدا وهم يبكون .. ويلقون بأكوام القش المحترقة وهم يتشنجون ..

ودوى صوته وهو يجرى « قوتك يارب » .. لم يسمع الناس صوته .. ولم يروه وهو يتحرك مثل حمامة سمينة .. كان يجرى هنا وهناك يحمل جرتين من الماء دفعة واحدة ويصبهما على الحطب المشتعل .. ثم يحمل على ظهره أكواما من القش المحترق يلقى بها بعيدا .. ويحمل عروق الخشب ويلقى بها حيث الرجال والنساء والماء .. قوة غاشمة جاهلة .. وفتوة مخزونة ويأس وضياع .. كل هذا كان يحركه ..

من نافذة بيت ذى طابقين جاء بكاء طفل وصراخ سيدة .. وتدافع الرجال نحو باب « اللوان » يحاولون فتحه .. ولم يستطيعوا .. ولكنه استطاع .. تراجع إلى الوراء ثم اندفع ورأسه ويداه نحو الباب فانخلع .. ودخل .. غاب فى الظلام ثم عاد يحمل الأم والإبن ..

وانهار سقف بيت واختفى رجال .. وتصاعد إلى السماء عويل وعواء .. وفى الفضاء تدافع دخان وتراب ونار وجن جنون الناس .. بكى الرجال وولولت النساء .. ولكنه أسرع وخلفه الرجال إلى حيث سقط السقف .. وخرجوا يحملون الجرحى .. وكان هو يحمل على كتفيه جريحا .. أرقده بعيدا عن النار . واستطاع أن يرى وجهه .. ورأى أبو رفاعى .. وراه الرجل .. لم تكن اصابته قاسية .. كانت الخسارة هى التى أثرت فيه .. ولكنه استطاع أن يدرك أنه مدين لهذا . « العبيط » بحياته .. وتبادلا نظرات صامته .. ثم ترك أبو رفاعى وعاد إلى الرجال ..

سرى الوهن فى مفاصل الرجال .. وتسرب اليأس القاتل إلى نفوسهم وكاد يعجزهم عن الحركة .. ولكن الأمر لم يكن هكذا معه .. كان لديه أمل .. كان يعرف الله ويؤمن به .. ويستطيع أن يبتهل إليه .. وهتف من أعماقه فى صمت « يارب » .. لقد انتقمت السماء وآن لها أن ترحم .. ودوى صوته « يارب .. يارب » وعاد يعمل وخلفه الرجال وكأنما قد زودوا بقوة جديدة ..

من بعيد دوى صوت الجرس منبعثا من عربة المطافىء وعربة الاسعاف خلفها .. ومرت لحظات ووصلت عربتا الرحمة .. ولم يكن أمام رجال المطافىء عمل كثير .. كان الناس قد قاموا بالكثير ..

أنقذ الجرحى .. وبدأ الناس يزيلون آثار الحريق .. ولكن أبو رفاعى تذكر ما حدث له .. وراح يبحث .. كان يريد أن يجده .. لم يكن يعرف ماذا يمكن أن يقول له .. ولكنه كان يريد فقط أن يراه وأن « يحب على رجليه ويديه إذا كان يقبل » ..

وهناك فى ركنه المنعزل من الزريبة كان يجلس وكان نور الفجر شاحبا حزينا .. وكانت أمامه بقايا نار .. وكان يفرك يديه وينظر من فتحة السقف إلى السماء وعلى شفتيه تتردد تمتمات ..

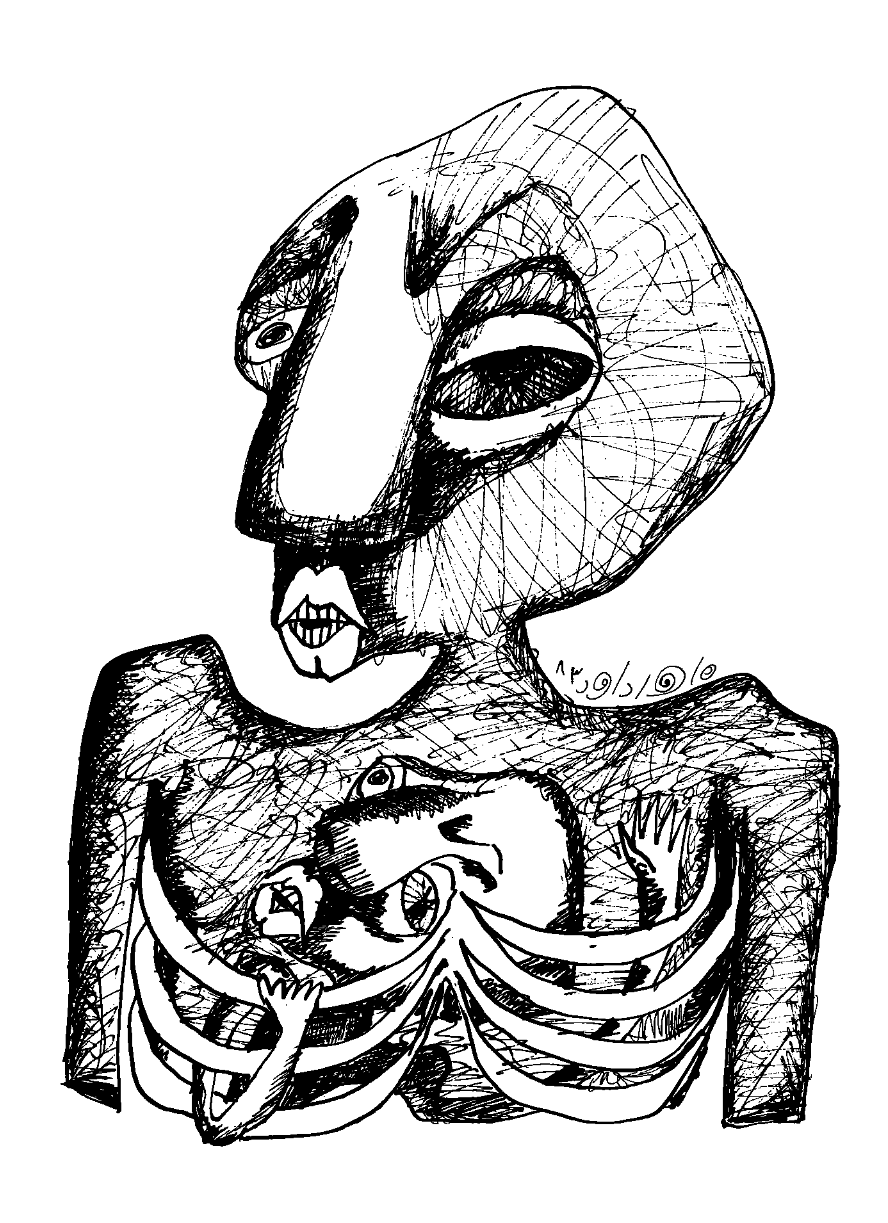
ودخلت ورأته .. كان وجهه وضيئا كأنه ملاك وشعرت وكأنها تدخل محرابا لم يكن لها حق دخوله .. وترددت .. ثم اقتربت منه وسألت :

- انت اللى ؟
- اللى ايه ؟
- كلهم بيتكلموا عنك ..
- أنا مارحتش هناك ..
- هدومك وسخة .. كنت هناك وكلهم بيتكلموا عنك ..

وبدون اهتمام قال « آه .. كنت هناك » .. وجلست فى مواجهته .. مسحت بيدها على وجهه .. لم يكن دميما .. نظرت اليه طويلا .. قبلته قبلة سريعة ثم خرجت مسرعة تتعثر .. وابتسم .. ضاء وجهه بابتسامة .. كان يدرك أنها أول ابتسامة حقيقية علت وجهه منذ بدأ يعى ..







هارب





عندما غادر شندى قريته فى أقصى الصعيد لم يكن فى نيته أن يعود .. كان آخر من بقى من العائلة بعد أن راح رجالها واحداً وراء الآخر فى عمليات الثأر المتبادلة بينهم وبين عائلة الإبراشى أكبر عائلات القرية كان قد حصل على قدر من التعليم ومنعه أهله بعد ذلك من الذهاب إلى المدرسة خوفاً عليه من القتل . وعاش فى القرية يشهد مصرع إخوته واحداً وراء الآخر .. وكان فى كل مرة يقتل فيها إنسان من احدى العائلتين يشعر بأن دوره يقترب .. ففى مقابل كل رجل يقتل من الأسرة الأخرى لابد أن يقتل رجل من عائلته .. وعندما لم يعد هناك إلا هو كانت عائلة الابراشى مدينة لهم برجل .. وكان لابد أن يقوم هو بقتل هذا الرجل .. وكان يوم .. كمن بين اعواد القصب وجلس ينتظر .. وطال به الانتظار .. ورآه قادماً .. ودق قلبه بعنف .. انه يعرفه .. كان يمكن ان يصبح صديقه .. كانا يلعبان معاً وهما بعد فى سنيهما الأولى .. ولكن ... وزاد وجيب قلبه .. وتمدد بين أعواد القصب .. ووضع إصبعه على الزناد .. وضغط .. ودوى فى الافق صوت اطلاق النار .. طلقة واحدة أعقبتها صرخة الم .. وانتهى كل شيىء ...

فكر مرة أن يترك القرية .. ولكنه الشعور بالخزى الذى منعه ... وبعد أن قتل الرجل قرر أن يترك القرية .. لم يكن مقتنعاً بما فعل .. وليس هذا هو السبب الوحيد .. كان هناك سبب آخر .. عندما انطلقت الرصاصة أغمض عينيه ..

كان يدرك أنها تعرف طريقها . وعندما سمع الصرخة ادرك ان كل شيىء قد انتهى.. وأنه هو نفسه قد انتهى.وعز عليه ان ينتهى نفس النهاية.. على الاقل لم يعد هناك من يأخذ بثأره إلا إذا كانت امرأة.. وشعر بالخوف.. شعر به لأول مرة فى حياته.. ولم تستطع البندقية التى يحملها ان تبدد هذا الشعور.. وشعر بأنه لابد أن يغادر القرية.. يجب ألا يموت.. لابد أن يذهب إلى مكان بعيد.. لابد أن يهرب..

غادر القرية ومستقبله أمامه ليلة مظلمة .. ووسط الظلام لم يستطع أن يرى شيئاً .. ماذا سيفعل ؟ لا يدرى .. كل مايعرفه هو انه لابد ان يهرب .. ويهرب بسرعة .. إلى أى مكان .. إلى مكان بعيد .. بعيد بحيث لا يصل إليه فيه أحد من عائلة الابراشى .. ولكن .. إلى متى ؟ فكر .. هل يعود ؟. ربما .. ولكن ليس قبل ان يكون قد أعد عدته لانتقام يغطى كل خسائر العائلة وبعدها لا يهم أن يموت .. « القاتل يقتل ولو بعد حين » تذكر وشعر بالحزن ..

ركب القطار المتجه إلى القاهرة وقرر أن يقيم هناك .. فى القاهرة أناس تربطهم به قرابة .. من المؤكد انهم سيقدمون له المساعدة .. ربما يستطيع الحصول على عمل .. كان يعيش فى قريته سيداً عزيزاً .. وقد يعمل الآن بواباً أو عتالا .. ولكن هذا لا يهم .. المهم هو أن يبتعد .. ولكن .. ربما يثور هؤلاء الاقرباء عليه .. وقد يتهمه بعضهم بالجبن .. بل من المؤكد أنهم سيفعلون هذا .. فوق هذا فعائلة الابراشى منها كثيرون فى القاهرة .. وسيعرفون مكانه بالتأكيد .. وسيلقى قدره كجبان .. واستبعد فكرة الذهاب إلى القاهرة .

اسند رأسه على زجاج النافذة البارد .. وفكر فيما لو كانوا فى القرية قد عرفوا بهربه .. ربما تتبعوه فى قطار آخر .. بل ربما فى نفس القطار .. ونظر خلفه فى رعب .. شعر بقليل من الارتياح .. من المؤكد أن الأمر سيكتشف .. ولكن ليس قبل الصباح .. كان واثقاً من أن أحداً لم يره وهو يغادر البيت .. كذلك فقد سار ساعات حتى وصل إلى محطة القطار فى المركز ..

تحسس جيبه بيده .. المحفظة فيها جنيهات كثيرة .. مبلغ يكفى لأن يفتح محلا للبقالة .. ولكنه لا يريد هذا .. لا يريد أن يبقى وقتاً طويلا فى مكان واحد .. قد يفعل ذلك .. ولكن ليس الآن .. قد يستقر الآن فى مكان ثم تصلهم أخباره .. ولابد فى هذه الحالة أن يواجه مصيره .. لابد من تضليلهم .. وفكر .. كثيرون من أهل القرية غادروها منذ وقت طويل .. بعضهم يبيعون الأقمشة فى القرى ..

وآخرون يعملون فى البناء .. وآخرون يعملون فى التراحيل .. نعم التراحيل .. انها لاتستقر فى مكان .. فكرة معقولة .. ولكن .. ماذا لو سأله أحدهم عن سبب وجوده .. انه لم يكن فقيراً .. بماذا سيجيب .. ولعن غناه .. قد يقيم فى مكان ماولا يعمل .. فقط يبتعد .. ولكن هذه النقود ستنفذ .. وما العمل بعد هذا .. بعضهم يبيعون الأقمشة .. تجارة لا تحتاج إلى رأسمال كبير .. بضعة أثواب ومقياس خشبى .. لفة كبيرة تحمل على الكتف ..

بعضهم نجحوا .. فالناس عادة يعطفون على الغرباء .. ربما لأنهم مارسوا الغربة .. وربما لأنهم يتوقعون أن يمارسوها .. وربما لأن لهم أولاداً يعيشون بعيداً عنهم .. هو نفسه مارس هذا الشعور من قبل .. كان يتمنى أن يرى غريباً ليقدم له خدمة .. ولكنه لم ير هذا الغريب ..

وحتى لو لم يبد الناس العطف فهو لا يريده .. فقط يريد الراحة .. ولا يمكن أن يكون الناس فى قسوة القدر .. القدر الذى يصدر أحكامه عليهم دون نظر لما يفكرون .. والذى أصدر عليه قبل مولده حكماً بالاعدام .. حكماً بدأت قصته بأعواد قصب .. اقتلعها أحد أجداده من حقل أحد أفراد عائلة الابراشى لم يكن بحاجة إليها ورماها بعد ان احتفظ باحدها ليمتص عصيره ، وهو فى طريق البيت .. وعتاب خفيف .. ثم مشاجرة .. ثم رصاص ودم .. هكذا .. وقصة طويلة طويلة .. قصة سمعها مئات المرات .. بل ربما آلاف المرات .. فى كل وقت .. وهو يهم بالنوم .. وهو يغادر الفراش .. وهو يتدرب على اطلاق الرصاص .. وهو يحفظ اشكال افراد عائلة الابراشى ..

من المؤكد أن الناس لن يكونوا بمثل قسوة القدر .. وحتى لو كانوا قساة .. فانه يملك النقود على الاقل .. ولن يمتنع أحد عن البيع له أو الشراء منه .. ثم أن أحداً لايعرفه .. فلماذا يقسون عليه ؟ وماذا عن الذين فى القرية ؟ عائلة الابراشى .. لن تنسى ثأرها بالتأكيد .. وستظل تبحث عنه .. ثم ماذا عن النساء من الأسرة ؟ ماذا سيكون من امرهن ؟ .. وشعر بالخزى . ولكن .. ان النساء عنصر لا يهم فى هذه الحالة .. عائلة الابراشى تريده هو ولا يهمها من أمر النساء شىء .. ولكنه لم يقتنع .. ولم يزايله الشعور بالخزى ..

حاول أن يلف سيجارة ولكن الورقة تمزقت بين اصابعه وتساقط التبغ فوق جلبابه الاسود .. وتذكر علبة السجائر فى جيبه .. أخرجها .. وحاول اشعال سيجارة .. انطفأ عود الكبريت ولم يكن الهواء هو السبب .. ثم اشعل السيجارة .. ولم يجد لها طعماً فى فمه .. وشعر بالظمأ .. خرج الى ممر العربة ولم يجد أحداً .. وعاد الى الجلوس ..

نظر من النافذة ولم ير شيئاً .. الظلام فى الخارج يلف كل شيء .. على البعد قرية .. يأتى منها ضوء خافت .. اختفى الضوء وسمع صوتاً .. هارب .. جبان .. « القاتل يقتل ولو بعد حين » .. تلفت حوله فى ذعر ولم يجد أحداً .. تصلبت يداه على البندقية .. ولم يشعر بالهواء البارد يتسلل من أعلى النافذة .. كان يحترق .. وكانت رأسه تدور .. وشعر بالعرق غزيرا ولزجاً على كل مكان من جسمه ..

الصق وجهه بزجاج النافذة .. فى البعيد قرية .. تبدو منها أضواء خافتة .. ودارت الاضواء .. وظلت تدور .. وظل أنفه ينقبض وينفرج .. ثم توقفت الاضواء عن الدوران .. وتركزت .. وأصبحت شعلتين كبيرتين .. وأصبحت الشعلتان عينين تحدقان فيه .. عينان فقط وحولهما الظلام .. ثم ظهر الوجه .. انه لا يعرفه .. لا .. لا .. لا .. انه يعرفه .. أنه رشوان .. الرجل الذى قتله اليوم .. ظل ينظر اليه ثم ضحك « رايح فين ؟ مفيش فايدة .. ماتتعبش نفسك يا شندى .. دورك جاى » وضحك مرة أخرى واختفى .. وظل صدى ضحكته يتردد فى الفضاء .. وصفع شندى النافذة بيده ..

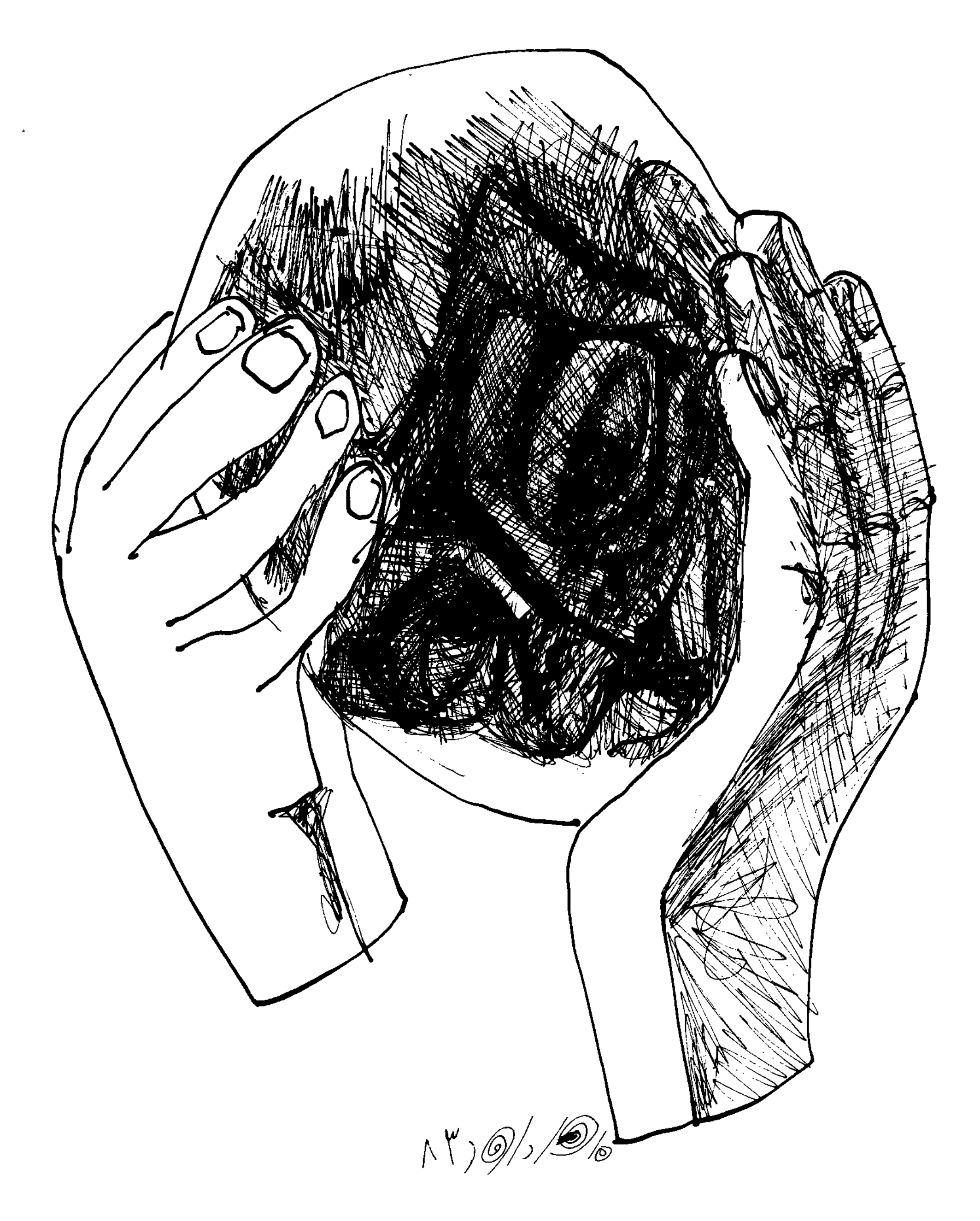
وضع رأسه بين ركبتيه .. ودارت رأسه .. واختفى كل شيء .. الكرامة .. العائلة .. الاسم .. الشرف .. اختفى كل شيء .. ولكن كلمتين ظلتا تترددان فى اذنيه « هارب .. جبان » .. وتذكر أمه وأخواته وأرامل اخوته .. ماذا من أمرهن الآن ؟ ماذا لو .. ؟ لا بد أن يعود .. والآن .. ولكن كيف ؟ لقد قطع مئات الأميال بعيداً عن الجحيم .. ولا يستطيع شيء أن يرغمه على العودة .. ولكن .. لا بد أن يعود .. « لازم أرجع » قرر .. لا يهم أن يموت .. الاقرباء فى القاهرة سيعرفون .. بعيدون هم عن العائلة حقاً .. وانقطعت صلتهم بها منذ وقت طويل .. وليسوا اشقاء .. كل هذا صحيح .. ولكنهم لن يتركوا ثأرهم .. ثم .. ربما استطاع أن يعقد صلحاً مع عائلة الابراشى .. أو .. « أسلم نفسى للمركز واعترف اننى اللى قتلت رشوان » .. وسيكون فى ذلك الحماية .. سيحاكم

ويوضع فى السجن .. وبعدها سيستطيع أن يقنعهم أنه قد استوفى نصيبه .. وهمّ بالقيام .. ولكن حركة القطار اشعرته بمكانه .. كان يريد أن يعود ..

غادر العربة وكان هناك قطار آخر متجه للقرية .. اتجه الى الرصيف الآخر وكان القطار يتحرك .. جرى نحو القطار وكان القطار يسير والابواب مغلقة امسك بمقبض الباب .. وظل يجرى مع القطار .. ولكن شيئا ما كان يجذبه إلى الخلف « حتموت .. ماترجعش » .. وصوت آخر كان يستحثه للعودة .. « لازم ترجع ياشندى .. لازم ترجع .. أمك ياشندى » .. وشعر بشىء يجذبه الى الارض .. وقاوم .. وشاهد نهاية الرصيف تقترب .. وحاول أن يقفز .. ولكنه سقط فى الهوة بين القطار والرصيف .. وسمع الناس فى المحطة صرخة ألم .. وعندما غادر القطار الرصيف كانت على القضبان أشلاء غارقة فى بركة من الدماء ..







الصيد في بحار جافة



الصيد في بحار جافة

تهيأ للحفل الكبير الذى دعى إليه كضيف شرف ، لم يكن متحمساً كثيراً لحضوره ، ولكن مادام قد قرر أن يحضر فيجب أن يذهب على أبهى صورة ، ارتدى أفخم ملابسه وانتقى ربطة عنقه بعناية واهتمام ، وضع المنديل فى جيب السترة العلوى ، وتوقف قليلا أمام المرآة ، لمس بيده الشعر الأبيض فى فوديه وابتسم ابتسامة إنسان سعيد راض عن نفسه تماماً ، ولم يكن ثمة فى الواقع مايمكن أن يعكر صفو حياته ، فهو أديب لامع ، وشخصية اجتماعية مرموقة ، قصصه تلقى رواجاً جماهيرياً فائقاً ، وقبل أن تكتمل أى قصة تنشر مسلسلة فى صحيفة أو مجلة تتسابق دور النشر للحصول على امتياز نشرها ، ويتسابق منتجو السينما لإنتاجها فيلماً على الشاشة البيضاء ، والكثير من قصصه تحولت إلى مسلسلات إذاعية وتلفزيونية ، وبعض قصصه كان محل دراسات علمية ، والبعض الآخر كان محور مساجلات نقدية وعندما سئل عن رأيه فى إحدى المساجلات إلى أى جانب يميل ؟

قال : إن الأديب ليس مطالباً بأن يقدم مذكرة تفسيرية لما يكتبه ، إنه فقط يكتب وليس مسئولا بعد ذلك إن اختلف الناس فى فهم مايريد أن يقوله ، بل لعله من الطبيعى أن يختلف الناس .. عندما إتخذ مكانه فى المقعد الخلفى من سيارته ، لاحظ أن سائقه قد فقد مرحه المعهود ، وكان معنى هذا أنه لابد أن يكون قد ألم به خطب جسيم ، فهو إنسان نقى الضحكة ، صادق الابتسامة ، يشعر بالرضى عن نفسه ، وعن الحياة ، ويؤمن بأن لكل إنسان نصيبه من العمر والصحة والرزق ، ولذلك فهو يواجه العالم بالضحكة ، ويغسل آلامه بالابتسام ،

والشكوى لغير الله مذلة .. ولأن العشرة بينهما طويلة ، فقد اعتاد كل منهما أن يعرف فيم يفكر الآخر ، وهكذا أدرك بسهولة أن ثمة ما يزعج الرجل ، ولذلك سأله ، وألح حتى عرف أن زوجته قد هاجمها مرض مجهول الهوية ، وأنه قد استغل ساعات راحته فى البحث بين الصيدليات حاملا الروشتة الجديدة حتى وجد الدواء المطلوب ، وهو يريد أن يوصل لها الدواء ، ويخشى فى نفس الوقت أن يؤخره عن موعده ، ولكنه طلب أن يذهب إلى البيت وقال «يستطيعون هم الانتظار قليلا .. وحتى كثيراً» ولم يكن بالفعل بحاجة إلى تفكير طويل ليفاضل بين الذهاب بالدواء والذهاب للحفل حيث سيشارك فى تقديم الجوائز فى مسابقة قصصية لم يكن متحمساً لموضوعها بقدر كاف وهكذا مضت به السيارة مبتعدة عن الشوارع المضيئة ، النابضة بالحياة ، والحافلة بالبهجة ، لتدلف إلى سراديب مظلمة تعارف الناس على تسميتها بالشوارع ، كرر السائق اعتذاره مرات عديدة ، ولكنه طلب إليه بقدر من الضيق أن يكف عن الاعتذار ، كان قد بدأ يشعر بالانقباض وهو يرى البيوت متلاصقة تكاد تتداعى على نفسها ، بينما الأطفال يتصايحون فى شبه الظلام ، وهم يتبادلون الكرة مثيرين حولهم سحباً من التراب ، وصوت أغنية ركيكة يصدر من محل عصير على ناصية الحارة .

عندما وصلا إلى البيت دعاه السائق للدخول متردداً ، ولدهشته هو شخصياً قبل الدعوة ، وبينما كانا يصعدان السلم المهترىء كان يسأل نفسه .. ما الذى دفعه لقبول الدعوة ؟ هل إنه مازال وقت كاف قبل الحفل أم ان لديه رغبة فى التعرف على المجهول ؟

وبدا السؤال غريباً ، فالذى يبدو مجهولا الآن لم يكن مجهولا منذ سنوات ، ربما سنوات كثيرة ، ولكنه على أية حال عاش فى مثل هذا البيت فترة من الزمان عندما كان طالباً بالجامعة ، وكانت أسرته تقيم فى الريف ، كانوا من ميسورى الحال ، وكان ما يبعثون به إليه من مال يكفى لكى يعيش على مستوى طيب ، ولكنه كان ينفق معظم ما يصله من نقود فى اقتناء الكتب وارتياد المسرح والسينما ، ولذلك لم يكن يبقى لمعيشته إلا القليل ، وكان سعيداً بهذا القليل ، كانت الحياة أبسط ، والهموم أقل ، والطموح لا حدود له ، والأمل فى أن يكون أديباً كبيراً يسيطر عليه ، ولذلك كان يدرس التجارة ، ويمارس الأدب خلسة باسم مستعار ، خوفاً من أن تتهمه الأسرة بالابتعاد عن مجال الدراسة ، ولكن عندما انتهت مرحلة الجامعة كان قد إختار طريقه ، ولم يكن أمام الأسرة سبيل للاعتراض.

استرجعته من أفكاره أصوات طرقات السائق على باب مسكنه ، وضجيج الأطفال فى الداخل وعندما دخل التقى بجيش من الأطفال ، وفى دقائق قليلة استطاع أن يعرف أن سائقه يعول هذا الجيش المكون من تسعة أبناء وبنات ، بعضهم وصل إلى مرحلة التعليم الجامعى ، والآخرون فى الطريق ، وبينما هو جالس يحتسى فنجان القهوة الذى أعد على عجل تحدث قليلا مع أكبر الأبناء وهو طالب بالجامعة ، وصدمه اللقاء ، فقد وجده نموذجاً مختلفاً تماماً عما كان عليه فى مثل هذا السن ، فالولد يتحدث بجرأة عن همومه ومشكلاته ، وهى جد مختلفة ، ويعلن بشكل محدد أن مشكلة المجتمعات النامية تكمن فى الفئات المثقفة التى تنشغل باهتماماتها وطموحاتها الشخصية ، وتنعزل عن البيئة التى انبتتها وربتها ، وكان على وشك أن يرد عندما جاء السائق مهرولا يعتذر عن التأخير ، فغادرا البيت ، وبينما كانت السيارة تنطلق مسرعة باتجاه مكان الحفل كان صدى الحديث القصير السريع مايزال يتردد فى رأسه بعنف ، معيداً إياه إلى حقبة ماضية .. لم يكن يختلف كثيراً على وجه الدقة ، ولكن من الواضح أن أشياء كثيرة قد دخلت حياة الناس وجعلت شاباً فى هذا السن يطفح بالهم والمعاناة ، لم يكن يختلف كثيراً فقد كان شاباً يفيض بالحيوية والرغبة فى أن يغير العالم ، وتساءل فى كدر : وهل غيرنا العالم ؟

ولما كانت الاجابة هى لا ... فقد كان السؤال التالى مباشرة هو لماذا ؟

لم يجد وقتاً كافياً للاجابة إذ كانت السيارة قد وصلت إلى مكان الحفل ، كان قد تأخر قليلا ولذلك فقد استقبله منظمو الحفل وقد زايلهم القلق ، وبدت الفرحة أكبر فى وجوههم ، كانت القاعة تسبح فى الضوء ، وعدد من الشبان الفائزين فى المسابقة التى تمولها إحدى المؤسسات قد شغلوا المقاعد الأولى ، بينما امتلأت القاعة بجمهور غفير جاء ليشاهد عن قرب نجوم الفن والأدب والصحافة والمدعوين للحفل ، وكثيرون من الجمهور جاءوا بلا دعوة .

اتخذ مكانه فى صدر المنصة ، وبدأ وكأنه لأول مرة يحضر مثل هذه الحفلات ، كان الحوار القصير السريع يشغل تفكيره ، ولذلك ألقى نظرة شاردة على جمهور الحاضرين ، ورغم شروده فقد استطاع أن يميز بين الحاضرين وجه ذلك الشاب الذى غادره منذ دقائق فقط ، وإندهش للسرعة التى استطاع بها أن يصل إلى مكان الاحتفال ، وتساءل ان كان ثمة سبب لوجوده فى الحفل ، وإزدادت دهشته عندما أعلنت أسماء الفائزين، وكان ذلك الشاب من بينهم، فائزاً

بالجائزة الثانية ، ووصلت دهشته أقصى مداها عندما وقف الشاب فى هدوء يعتذر عن قبول الجائزة قائلا : «أنه لم يتقدم إلى المسابقة بحثاً عن جائزة ، ولكن ليتحدى بعض أعضاء اللجنة الذين سبق أن رفضوا قصصه عندما قدمها لهم بشكل شخصى» .

لم يكن عضوا فى اللجنة التى فحصت القصص ، ولم يكن بعد قد قرأ شيئاً لهذا الشاب ، ولكنه مع ذلك شعر أن أشياء كثيرة تهتز وتعيد ترتيبها تلقائياً داخله ، وعندما دعى لإلقاء كلمة شعر بأن ما بداخله ليس سوى فراغ ، وحاول أن يقول شيئاً ، ولكن لا هو شعر أنه يقول شيئاً له قيمة ، ولا الناس فى الحفل استقبلوا كلماته بمثل ما اعتاد ، كان يشعر بأنه يعزف على أوتار صدأت من تداعى الزمن عليها ، وأنه إنما يحاول الصيد فى بحار جافة ، وهاله أن يرى ذلك الشاب يستحوذ على اهتمام الحاضرين وهو يردد كلمات بسيطة ، أم أن أذواق الناس قد انحطت وعم الفساد ، ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يتجاهل نبرة الصدق التى لمسها فى حديث الشاب ونبرة الصدق فى تجاوب الناس ، وعاد يسأل نفسه عما يحدث فى هذا العالم .. ؟ .

عندما تلقى مكالمة من أحد الناشرين بعد عودته لم يكن راغباً فى أى حديث ، ولكن الناشر كان يلح فى الحصول على وعد بأن تكون القصة الجديدة من نصيبه لكنه لم يكن يدرى إن كانت ستكون ثمة قصة أخرى جديدة ..





صك البراءة



صك البراءة

اكتشف بما يشبه الدهشة أنه أمضى ساعتين فى القراءة .. لم تكن القراءة فى حد ذاتها مصدراً لدهشته فقد اعتاد أن يمضى الساعات وربما الأيام فى إعداد وقراءة ومراجعة ومناقشة الدراسات والتقارير الفنية والمالية .. كان سبب الدهشة أن يعطل حجماً هائلاً من العمل ويستغرق كل هذا الوقت فى قراءة قصة حب وهو الرجل الذى ينقضى يومه بين الأرقام والرسوم البيانية والشروح الإحصائية والخطابات والبرقيات والاجتماعات التى تتناول كلها موقف العمل فى مشروعاته العديدة داخل البلاد وخارجها أو مشروعات جديدة ينوى إقامتها أو الاشتراك فيها هنا أو هناك .. وتساءل كيف تسنى له أن يتجاهل المواعيد العديدة التى ارتبط بها .. وكيف لم ينبهه سكرتيره الخاص إلى ذلك .. ؟ ونسى أنه بعد دقائق من دخوله المكتب طلب من السكرتير أن يلغى كافة المواعيد وألا يشغله بأى مكالمة هاتفية أو بأى شىء آخر .. ولم يناقشه السكرتير فى هذه الرغبة لأنه بحكم خبرته الطويلة به ومعايشته له قد أدرك لابد أن وراء هذه الرغبة أسباباً قويةً تفوق فى أهميتها أية مواعيد او إرتباطات .. كان استنتاج السكرتير صحيحاً .. لأن الرجل يحترم عمله ويعيش حياته بنظام ثابت ودقيق وصارم .. كل شىء لديه منظم إلى أبعد حدود التنظيم : النوم والصحو والخروج والدخول والمقابلات وقراءة البريد وتوقيع أية أوراق أو معاملات .. كل ذلك يتم وفقاً لمواعيد محددة وثابتة ولا مجال للتجاوز فيها أو الاخلال بها .. وقد استطاع خلال سنوات طويلة أن يقدم للعاملين معه القدوة فى ذلك بحيث أصبح أمراً مثيراً للدهشة أن يتأخر دقائق عن موعده حتى ولو كان السبب فى ذلك سهرة طويلة لمناقشة قضية معينة أو اختناقاً فى المرور .. ومن خلال هذا استطاع أن يعلم العاملين معه إحترام العمل والمواعيد

أكثر مما تستطيع أى لوائح أو أوامر إدارية أن تحققه .. ومن هنا كانت دهشة السكرتير أن يطلب إليه إلغاء مواعيد عمل .. ولكنه لم يكن يملك سوى احترام هذه الرغبة وتعديل برنامج اليوم بالكامل تحسبا لأى تغييرات قد تحدث ..

أما هو فقد استرجع ما حدث فى الصباح عندما انتابته رغبة مفاجئة فى النظر إلى مكتبته ليكتشف وسطها كتاباً قديما سبق أن قرأه منذ أعوام بدا له أنها قرن كامل من الزمان .. اكتشف أن الكتاب هو قصة مترجمة عن الأدب العالمى .. واحدة من مئات القصص التى قرأها أيام كان اهتمامه بالأدب يشغل جل تفكيره . وأيام كانت له جماعة يلتقون دائما ويتسامرون ويتبادلون قراءة ما يصلهم من كتب وما يعن لأحدهم أن يكتبه من قصة أو شعر أو مقال .. عندما تأمل الكتاب واسترجع تلك الأيام ردد بينه وبين نفسه «لقد كانت تلك هى الأيام البراءة» وتذكر قول صديقه الأديب حين التقيا بعد فراق طويل «لقد انقضى زمن البراءة» وحمل الكتاب معه للمكتب ولم يكن مستعداً لأن يرى أحداً فقد أدرك فى لحظة أنه يريد أن ينسلخ لبعض الوقت من عالم كله صناعى .. أدوات الحضارة كلها بين يديه .. ما عليه سوى أن يضغط زرا حتى تتغير أشياء عديدة حوله .. وتذكر أنه فى البداية تعامل مع أدوات الحضارة بصعوبة لم تكن ناتجة عن عدم الفهم بقدر ما كانت راجعة لاحساسه بأن هذه المنجزات الحضارية بقدر ما تيسر للانسان كل شىء فإنها تحكم براءته ونقاءه وتحيله شيئا فشيئا إلى جزء من آلة اقتصادية هائلة .. ولكن بمرور الوقت تقلصت قدرته على الرفض . ورغم أنه يشغل إحدى القمم فى عالم المال والاقتصاد ظل يشعر بأنه جزء من هذه الآلة .. وعندما طالع ذلك الكتاب القديم تذكر أنه قد فقد الكثير من حرارة النبض الانسانى .. وسيطرت عليه الرغبة فى الهروب قليلا من برودة البقاء وحيداً فوق القمة .. وتذكر قول صديقه الأديب فى إحدى المرات «كلما إزددت إرتفاعاً ازداد الجو برودة» .. وعندما وصل مكتبه طلب إلى السكرتير أن يلغى كل مواعيد اليوم وجلس يقرأ .. ولم يكن يتوقع أن تستغرقه القراءة بهذا القدر الذى يمكن أن ينسيه كل شىء حوله .. إلا أنه عندما بدأ يقرأ شعر أنه يكتشف العالم من جديد .. ويراه من زاوية مختلفة .. وقد حاول أن يطابق بين هذه الزاوية وبين الزاوية التى كان ينظر منها إلى العالم .. ولكنه لم يستطع وشعر بالمرارة وردد «لشد ما غيرتنا الحياة» وإنتابه نوع من الجزع عندما ردد هذا المعنى وتساءل : هل تغيرت حقا ؟ .. وقد كان التغيير حقيقة لا تقبل الجدال .. ولم يكن أمامه مفر من الاعتراف بأن ثمة تغييرا هائلا قد حدث .. وأن الصورة النموذجية التى تكونت

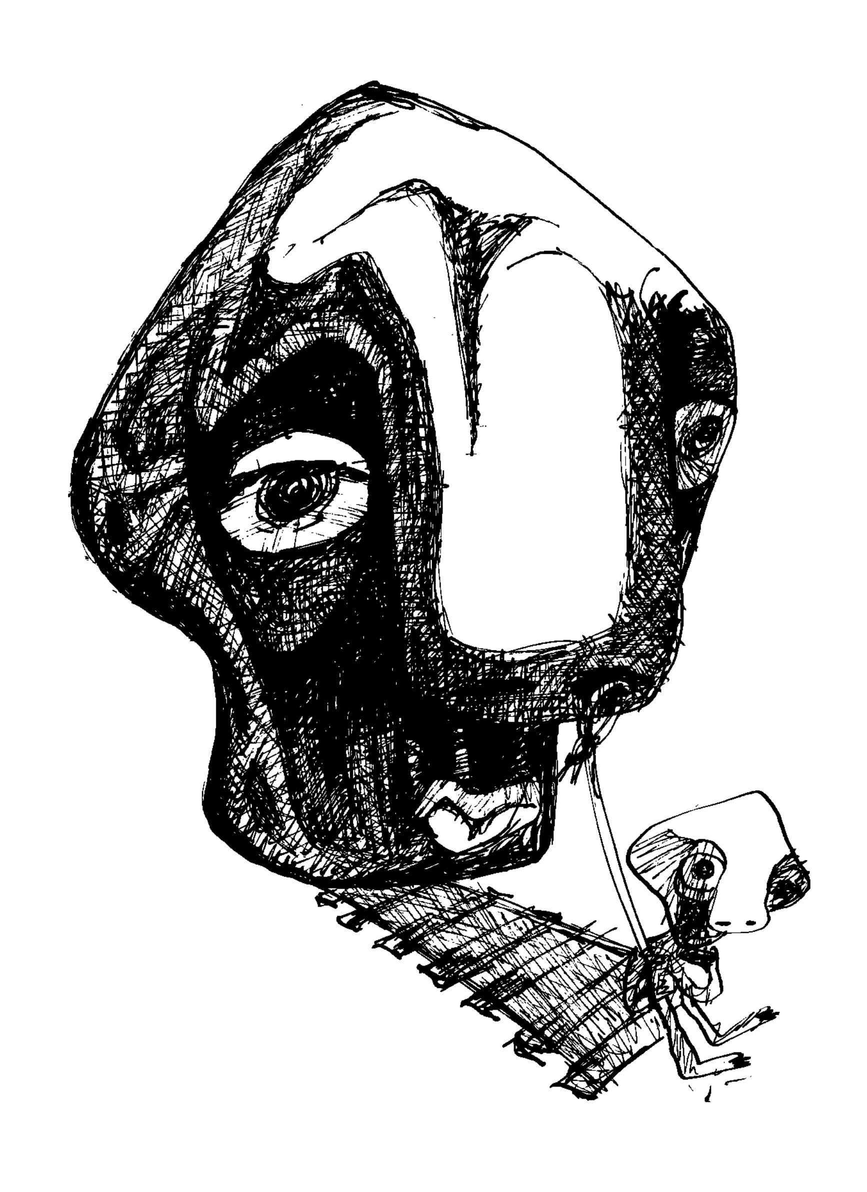
عنه فى أذهان كل الناس لا تتطابق بحال من الأحوال مع الصورة التى كان ينشدها عندما كان فى بداية الطريق .. حين كان عالمه يبدأ وينتهى بالأدب .. ففى ذلك الوقت كان هناك الأب والأسرة التى تضع كل آمالها فى أن يتعلم فى الخارج .. وأن يعود بشهادة فى الاقتصاد أو التجارة ليدير أعمال والده .. رفض طويلًا طويلًا ولكنه لم يستطع أن يقاوم أسرة كاملة تضغط بكل الاصرار . وتصور أنه يستطيع أن يزاوج بين الأدب والاقتصاد والتجارة .. وقد حاول ذلك فى الخارج ولكنه لم يستطع .. كان لا بد أن يتفوق .. ووعد نفسه بأنه عندما يعود سوف يجد وقتاً كافياً لأن يقرأ ويكتب كما يريد .. وعندما عاد كانت الأعمال والمشكلات والآمال فى انتظاره .. واستغرق فى الأعمال .. وكان عندما يلتقى بصديقه الأديب يكرر حديثه عن الزمن المستقبل الذى يستطيع فيه أن يكتب ويقول كل ما يريده . وعندما تصور أن ذلك الزمن المستقبل قد جاء وحاول أن يكتب واجه مشكلة .. فقد وجد بعد أن انتهى من كتابة أول خاطرة أدبية أنه قد صاغ كلاما بديعاً ولكنه خال من أى معنى كأنه عقد من الزجاج الملون .. هو عقد ولكنه بلا قيمة حقيقية .. بينما قطعة الماس توحى بالقيمة حتى وهى فى صورتها البدائية .. وبعد سنوات أخرى اكتشف أن الذى يشغله لم يعد إدارة أعمال الأسرة والحفاظ على مصالحها ولكن الذى يشغله هو مجرد جمع المال .. مجرد النجاح .. أصبح رجلا صناعته أن ينجح .. وفى زحام النجاحات تبددت الأحلام القديمة .. وهكذا بدت الأمور حتى كان ذلك اليوم الذى طالع فيه الكتاب القديم .. فشعر بأنه يعيد اكتشاف العالم .. وانداح فى داخله شعور الأسى .. فقد أصبح الزمان غير الزمان وتغيرت ملامح الناس والأشياء وتحولت المعانى الطيبة إلى مايشبه العملات الأثرية .. ذات قيمة عظيمة ولكنها غير قابلة للتداول ..

فكر فى أن يترك كل شىء ويمضى إلى جهة مجهولة يبدأ فيها من جديد .. وتذكر صديقه الأديب الذى عاش يحلم بالبراءة ويدعو لها .. ولم يطل به العمر فودع هذا العالم ومضى إلى عالم آخر هو العالم الوحيد الذى توجد فيه البراءة والحقيقة . وقال لنفسه بلسان صديقه القديم «كأنى بك ياصديقى تريد أن تحصل على صك البراءة الذهبى فى وقت طوى فيه كتاب البراءة» .

وفيما تذكر بعد ذلك كانت هذه المرة الوحيدة التى يفعل فيها شيئاً

يريده بصدق .. فقد بكى بصدق أكثر مما بكى فى أى مرة فى حياته ..





القطار والحبل

القطار والحبل

جرس التليفون .. دفعت مقعدى المتحرك فى اتجاهه .. تبدو المسافة طويلة جداً رغم انها بضعة أمتار .. رغم انشغالى بالوصول إلى التليفون خطر لى خاطر غريب .. تصورت كأنى أسير على قدمى وأجر قطاراً بحبل .. لست أدرى ماالذى يدفع بالخواطر الغريبة إلى رأس الإنسان وهو فى أشد حالات التركيز الذهنى .. ولماذا يتشتت ذهن الانسان بين فكرة وأخرى .. اقتربت من التليفون وهو مستمر فى الرنين بشكل استفزازى .. كأنه يحمل اتهاماً بالعجز والكسل .... صدمت المائدة بمقعدى دون قصد فوقع التليفون على الأرض .. بذلت جهداً كبيراً لاستعادته .... كان الصوت يأتى من الجانب الآخر متلهفاً .. لم أتبينه حتى وضعت السماعة على أذنى .. كان المتحدث صديقاً قديما .. يبدو أن صوتى بدا مرهقاً فقد بادرنى بالسؤال :

ــ خيرى .. ماذا هنالك ؟

ــ لا شىء ..

ــ كيف لا شىء .. إنك تبدو ثائراً أو مرهقاً لست أدرى ولكن صوتك على أى حال ليس طبيعيا ..

ــ قلت لك اننى بخير.. على الأقل ليس هناك جديد.. قال بفرحة صادقة:

ــ ولكن لدى جديداً ..

قلت بفتور :

ــ الجديد مثل القديم .. لم يعد يهم شىء ..

قال مندهشاً :

ــ أراك يائساً اليوم ..

قلت متبرماً :
ــ لا تضجرنى أكثر وقل ما عندك ..
ــ عندى خبر يهمك جداً ..
ــ ماهو ؟
ــ سمعت فى أخبار الصباح أن طبيباً متخصصاً قد وصل منذ يومين .. هل تدرى فى أى نوع من الطب هو متخصص ..
ــ فيم ؟
ــ فى حالتك ..
ــ وماذا يعنى هذا ؟
ــ يعنى أن ثمة علاجاً لحالتك .. ثمة أمل أخيراً ..
ــ ولكنى لن أذهب إليه ..
سأل فى خيبة أمل :
ــ ولكن لماذا ؟
ــ هكذا ..
ــ كيف هكذا يارجل ؟
ــ قلت لك هكذا .. لاأريد هذا الأمل أو بالأحرى هذا الوهم .. خلاص .. انتهى الأمر .. لاأريد مزيداً من المناقشة فى هذا الموضوع ..
قال فى إصرار :
ــ سآتى به لفحصك فى المنزل ..
ــ لكنى لاأريد هذا .. أرجوك لاتتعب نفسك ..
ــ أظن أنك الآن فى حالة غير طبيعية .. سأتصل بك فى وقت آخر ..
ــ مرحبا بك فى أى وقت ولكن لاتتعب نفسك .. لاأريد مزيداً من الأوهام ..

أنهيت المكالمة .. غريب أمر صديقى هذا .. تتغير الدنيا وتختلط الأمور ولكنه يبدو صامداً محتفظاً بقوة هائلة ورصيد لاينفد من صفاء الروح ونقاء النفس .. كأنه لايتأثر بما يحدث فى هذا العالم .. عجيب أن يوجد فى هذه الأيام إنسان بهذا القدر من الصفاء والإخلاص فى عصر أصبحت فيه هذه الصفات كالعملات النادرة عظيمة القيمة ولكنها غير متداولة ..

دفعت مقعدى فى اتجاه غرفتى .. شاهدتنى الخادمة التى كانت قد خرجت لتوها من المطبخ فأسرعت لتدفع المقعد .. لم أكن راغباً فى ذلك .. أود أن أعتمد على نفسى كما إعتمدت طوال حياتى .. لاأريد تدخلا من أحد .. لكنهم يزعجوننى .. زوجتى وأبنائى والخادمة .. الكل يتطوعون دائما لعرض خدماتهم .. ولكنى لاأريد خدمة من أحد .. أدرك داخليا أن الباعث على هذه التصرفات هو الشفقة أكثر من غيرها وهذا يثير جنونى ..

دفعت الخادمة مقعدى بضع خطوات .. ضايقنى هذا .. أردت أن أبعدها .. مددت يدى فلمس ساعدى صدرها بدون قصد .. شعرت بطراوة صدرها .. توقفت يدى برهة .. شعرت بالحرارة تسرى فى ذراعى .. بدت مستكينة للحظة .. سحبت يدى .. ضايقنى الاحساس .. هذه الماكرة .. لماذا ظلت مستسلمة هكذا .. هل هو نوع من المناوشة .. لست أدرى .. الذى أعرفه أننى لم أفكر فيها أبداً كأنثى .. كانت دائماً مجرد بنت لدينا منذ جاءتنا وهى فى الرابعة عشرة من عمرها إلى أن تزوجت .. حتى عندما مات زوجها وعادت إلينا ظلت مجرد بنت .. لم نكن فى البداية راغبين فى أن تكون لدينا خادمة .. ولم نكن بالفعل فى حاجة لخادمة .. كنت وزوجتى نقيم فى شقة من غرفتين بدون صالة تقريباً فقد كانت الصالة مجرد مثلث حاد الزاوية لايصلح لشىء ولم يكن بمقدورنا أن نرفض الشقة أو نعترض عليها .. لم يكن أمامنا غيرها ولم تكن إمكانياتنا تسمح بالسكنى فى شقة أوسع .. كذلك فى سنوات الزواج الأولى لم يكن لدينا أبناء .. ولم يكن الأمر يحتاج إلى مجهود كبير من زوجتى .. ولكن فيما بعد عندما أصبح لدينا أبناء ولدينا كذلك إمكانيات انتقلنا إلى شقة أوسع تتكون من أربع غرف مع صالة كبيرة .. وفى هذا الوقت فقط تخلت زوجتى عن مبدأ الاعتماد على النفس وطالبت بأن يكون لديها خادمة .. إن لم يكن لحاجة فعلية فعلى الأقل أسوة بمن هم فى مثل وضعنا الاقتصادى والاجتماعى .. وهكذا جاءت هذه الفتاة الصغيرة التى هى الآن أنثى كاملة .. الآن فقط أدرك أنها أنثى وأن لها صدراً .. هذا حقاً لايهمنى كثيراً ولم يكن يهمنى قبل ذلك فى كثير أو قليل ولكنه الآن اكتشاف مثير للاهتمام .. اكتشاف يكسر الرتابة والملل . ماهى الخطوة التالية .. ليس فى ذهنى تصور محدد فى هذه الناحية ولكنى أستطيع أن أقرر أنها ستظل أيضاً مجرد بنت .. ليس تقليلًا من قيمتها كإنسانة ولكن لأنها بالفعل لاتعنى لى أكثر من ذلك ..

دخلت غرفتى .. بدت غارقة فى الضوء .. ضايقنى هذا .. شعرت بأن الضوء يستفزنى كما استفزنى التليفون منذ لحظات .. ظللت متردداً .. دفعت مقعدى حتى وصلت إلى النافذة .. مددت جسمى إلى أقصى ما استطعت لأغلقها ولكنى فشلت .. اللعنة .. ناديتها فجاءت .. طلبت منها أن تغلق النافذة .. ظلت ساكنة برهة .. هممت بأن أخلى لها المكان وتحركت هى فى نفس الوقت . فى إتجاه النافذة .. شممت رائحتها .. لأول مرة أشعر بأن لها رائحة أنثوية .. رائحة بكر لا تشوبها رائحة أى نوع من مستحضرات التجميل .. ازددت حنقاً ودفعت مقعدى فى اتجاه غرفة المكتب .. كانت ساكنة تماماً .. نظيفة تماماً ومرتبة .. الكتب موضوعة فوق أرفف المكتبة بنظام بديع .. تماماً كما تخيلت وحلمت لسنوات طويلة .. أن تكون لدى مكتبة كاملة مجهزة أضع فيها كل ما أحتاجه من كتب فى تخصصى كمهندس وما أرغب فى قراءته من كتب فى الأدب وغيره من فروع المعرفة الانسانية .. ها هى مجهزة وملآى بالكتب .. وهذه هى طاولة الرسم الهندسى .. ولكن لا أنا بمستطيع أن أستعمل طاولة الرسم ولا أنا راغب فى القراءة .. دفعت مقعدى حتى المكتبة .. تناولت كتاباً قلبت فى صفحاته وفكرت فى أن ألقى به أرضاً ولكنى ترفقت به وأعدته إلى مكانه فوق الرف .. زوجتى تأخرت فى الخارج والأولاد مازالوا فى مدارسهم .. هذا تقريباً موعد الفسحة بين الدروس .. تراهم يلعبون ويمرحون .. لابد أنهم كذلك .. ليسوا هم فقط .. بل كل التلاميذ .. ليس التلاميذ فقط .. بل كل الناس يتحركون فى كل إتجاه .. الصحة تاج على رؤوس الأصحاء .. اللعنة .. ما أكثر ما نطلق من حكم وأمثال .. كم هو مؤلم أن نردد الحكم والمواعظ ..

دفعت مقعدى إلى خارج الفيللا .. تمهلت وتشبثت بحافة السور فوق المنحدر المؤدى للحديقة .. أصبحت بين الأشجار .. الجو بارد قليلا .. بعد أيام ينتهى جغرافيا موسم الشتاء ويبدأ الربيع .. من الناحية العملية ما هو الفرق .. عندما تتغير الفصول تتغير أشياء كثيرة فى تصرفات الناس .. خاصة عندما ينتهى الشتاء ويبدأ الربيع .. تزهر الأشجار ويبدأ موسم الإخصاب .. ولكن ما هو الفرق بين الربيع والخريف إذا كانت كل علاقتى بالفصول هى مراقبة الأشجار فى الحديقة .. اللعنة .. اقتربت من الأريكة المعلقة بين الأشجار .. بذلت مجهوداً عنيفاً لكى أنقل نفسى من مقعدى إليها ولكنى فشلت .. اللعنة .. عدلت عن الفكرة .. دفعت مقعدى إلى المنضدة وسط الأشجار .. جاءتنى الخادمة تحمل

الصحف .. وضعتها أمامى على المنضدة وذهبت .. طالعت العناوين الرئيسية فى الصحف ثم شغلت نفسى بحل مسابقة الكلمات المتقاطعة .. جاءت الخادمة تحمل صينية الشاى .. وقفت قبالتى تصب الشاى فى استغراق .. استرعى انتباهى نفور صدرها وذلك الأخدود العميق المبتدىء من فوق جبينها هابطاً إلى ماتحت ثوبها البسيط .. عجبت أنى اكتشفت فيها شيئاً جديداً .. هذا الاكتشاف هو ثانى اكتشاف مثير فى هذا اليوم الرتيب الممل .. شعرت بنظراتى ولم تبد نفوراً .. تأملت خصلة الشعر المتهدلة فوق وجهها . تساءلت إن كان ذلك مقصوداً أم أنه حدث بالصدفة .. سألتنى إن كنت أريد شيئاً آخر فأجبت بالنفى .. مضت على مهل .. وعندما استدارت لاحظت امتلاء جسمها كما لاحظت أن الجزء من خصرها حتى قدميها يشبه مخروطين متقابلين .. لست أدرى لماذا ذكرنى هذا بأقماع السكر التى كانت فى الماضى تصل إلينا فى القرية .. ذكرنى هذا بمقال كتبه صحفى فى إحدى الصحف اليومية يشبه فيه إحدى الراقصات بطبق الجيلى .. طبق جيلى .. قمع سكر .. اللعنة .. لماذا نستغرق فى الاهتمام بالأشياء التافهة ..

انتهيت من احتساء الشاى .. زوجتى لم تعد حتى الآن .. لقد ذهبت إلى الطبيب تحمل آخر صور الأشعة التى التقطت لى .. اللعنة .. كم هى مرهقة هذه الصور .. استلق من فضلك .. هكذا الأوامر .. لاتتحرك .. ومن أين تأتى الحركة والنصف الموجوع فقد حياته شيئاً فشيئاً .... أمضى فى الطريق أجر قطاراً بحبل .. زوجتى ذهبت إلى الطبيب .. سيدة ممتازة هى .. لا تكف عن المحاولة .. لا يصيبها اليأس .. ماتزال تحتفظ بالأمل فى أن تتغير الأحوال .. لابد أنها قرأت عن الطبيب الأجنبى الذى وصل إلى البلاد مؤخراً وسوف تزعجنى وتلح فى أن أعرض نفسى عليه .. وعندما أرفض سوف تبكى .. ولكننى هذه المرة لن أستسلم لبكائها كما استسلمت فى كل المرات السابقة .. لست أدرى إن كان ماتفعله من أجلى صادراً عن حب أم هو نوع من الشفقة أم انه تقدير لخدماتى السابقة وماوصلت إليه من رفاهية .. طبعاً .. الحكومة تصرف معاشاً فى حالات العجز والشيخوخة .. وأنا الآن زوج فى المعاش .. مازالت لدى القدرة حقاً ولكنى عملياً فى المعاش .. هى لاتحب أن تحرجنى أو ترهقنى ولكن مقدرتى تفرض نفسها من حين لآخر .. أحياناً أنسى ماحدث وأهم بالحركة كالسابق ولكن النصف الخامل يعيدنى إلى الواقع .. أتذكر صورتى وأنا أجر قطاراً بحبل .. لاالحبل ينقطع ولاالقطار يتحرك ولاأنا أكف عن المحاولة ..

سمعت جرس التليفون يرن .. دفعت مقعدى فى اتجاه الفيللا .. كانت زوجتى تتحدث من عيادة الطبيب .. تركته يحدثنى .. أخبرنى بأنه ليس ثمة تقدم فى الوقت الحاضر ومع ذلك يجب أن نحتفظ بالأمل .. أعجبنى أنه صريح .. قال أن لديه أمل فى الطبيب الأجنبى الذى وصل الى البلاد مؤخراً ولكننى أصرت على أنى لن أعرض نفسى عليه .. لا أستطيع احتمال فشل جديد .. لقد تالمت سنوات عديدة وكان ثمة أمل .. ولكن فشل الجراحة التى أجريت قضى على كل أمل .. شعرت بالألم فى وقت مبكر وكنا نعزوه لأسباب عديدة .. شعرت به لأول مرة بعد فترة قصيرة من الزواج .. كنا فى وضع مالى صعب .. وكان أملنا محصوراً فى أن نجمع مبلغاً من المال يكفى للانتقال إلى شقة أوسع وتأثيثها .. عملت سنوات طويلة فى مكتب هندسى خاص فضلًا عن عملى فى الشركة .. كنا نمضى ليال بطولها نعد رسماً نمضى شهوراً بلا اجازة أسبوعية .. وعندما اكتمل المبلغ الذى كنا نتطلع إليه ترددت طويلًا .. فكرت فى أنه من الأفضل استثماره وتأجيل موضوع الشقة .. ولكن المبلغ لم يكن كافياً للاستثمار ولذلك كان على أن أعمل بنفس المجهود سنوات أخرى .. وكان على زوجتى أن تدخر كل مايمكن ادخاره .. ورغم أنها أصبحت أماً وزادت مسؤوليتها فى العمل وفى البيت فقد حافظت على سياستها الادخارية .. وهكذا أمكن مضاعفة المبلغ عدة مرات وأصبح لى مكتب هندسى خاص بى ..

جرس التليفون من جديد .. المتحدث هو مساعدى فى المكتب .. هو من الناحية الواقعية الآن مدير المكتب كان زميلًا لى فى العمل .. ولكنه كان أقل طموحاً حتى إنه تردد طويلًا قبل أن يترك عمله بالشركة ويتفرغ للعمل معى واحتجت إلى جدال ومحاولات مضنية حتى أقنعته بالاستقالة .. هو من النوع الحريص جداً والدقيق جداً فى عمله وهذا هو مايدعونى للاطمئنان .. إنه حريص على أن يطلعنى أولًا بأول على كل مايجرى فى المكتب ولا يبرم عقداً إلا بعد دراستى له .. ولا يتخذ قراراً إلا بعد الرجوع إلى وهذا يضجرنى إلى حد المرض .. ولكن هذه هى طبيعته وعلى أن أتقبله كما هو .. يبدو أننا نضطر أحياناً لتقبل الأشياء كما هى .. ولا يفيد أن نسأل لماذا هى كذلك .. لأن مثل هذا السؤال يظل معلقاً بلا إجابة .. مثلما السؤال عن لماذا الجزء من جسم الخادمة الواقع بين خصرها وقدميها يشبه المخروطين المتقابلين .. لست أدرى لماذا أفكر فى هذا الأمر .. ربما لأنها فى هذه اللحظة تمر من أمامى .. وربما لأننى لم أكتشف هذا إلا اليوم فقط ..

زوجتى لم تصل بعد .. قالت إنها سوف تذهب لزيارة أمها لبضع دقائق .. هذا حقها .. ربما هى الآن فقط تستطيع أن تمارس حقوقها الصغيرة .. لقد حرمت نفسها سنوات طويلة .. كانت فترة الخطوبة القصيرة التى عشناها هى الفترة المزهرة فى حياتنا .. فكم مشينا فيها على شاطىء النيل نتسلى بالأشياء الصغيرة ونضحك من الوريد إلى الوريد لنكتة عادية تقال .. ولكن ما أن تزوجنا حتى توقفنا عن هذه الأشياء الصغيرة .. ومنذ أن فعلنا ذلك توقفنا عن الضحك ملء الفم .. كانت أمامنا سنوات شاقة .. فبعد أن أمضينا السنوات الأولى وأثثت مكتبى الهندسى كان على أن أدبر له عملًا كافياً .. وتطلب هذا اتصالات ومجاملات عديدة .. وكان هذا مرهقاً لى مالياً ومع ذلك كنت أتحمل .. لم أكن أستطيع أن أستضيف أحداً فى شقتى المتواضعة .. وذات يوم قالت لى زوجتى :

ــ أظن أننا وقد أصبح معنا مال الآن نستطيع أن ننتقل إلى شقة أوسع ..

ــ ألا تستطيعين الانتظار سنة أخرى ..

ــ لماذا سنة ؟ ..

ــ لننتقل إلى شقة فى عمارتنا ..

ــ أية عمارة ؟ ..

ــ العمارة التى سنبنيها

ــ وهل تنوى بناء عمارة ؟ ..

ــ نعم ..

ــ لم يكن هذا فى خططنا .. كل ما أردناه أن ننتقل بأنفسنا إلى ظروف أفضل .. مجرد ظروف أفضل فقط وليس بناء عمارات ..

ــ وهل بناء عمارة يتعارض مع الظروف الأفضل ؟ ..

ــ لا يتعارض .. ولكننا عشنا كما فى معسكرات سنوات طويلة .. بدون إجازة.. بدون حتى رحلة قصيرة إلى أى مكان.. ومن حقنا أن نعيش..

ــ إذا كنا قد انتظرنا سنوات أفلا نستطيع أن ننتظر عاماً آخر ؟ ..

ــ هذه المرة لا .. لا يمكن أن يكون معنا مال يكفى لبناء عمارة ونبخل على أنفسنا بشقة .. كان من الممكن أن يطول بنا الجدال إلى ما لا نهاية .. ولكنها كانت على حافة الانهيار .. وكان قد أصبح لدينا ثلاثة أبناء .. وتحت ضغط كل هذه الظروف انتقلنا إلى شقة فسيحة مكونة من أربع غرف وصالة كبيرة ..

جهزناها تجهيزاً فاخراً .. ولكن هذا عطل مشروع العمارة فترة كانت حافلة بالخلافات بيننا .. ولكن لأننا متحابان تجاوزنا هذه الخلافات .. والعجيب أنها زادت التصاقاً بى عندما بدأت آلامى تزيد .. فى كل مرة كنت أزور فيها الطبيب لم يكن ذلك إلا بضغط منها .. كنت أتصرف بفكرة أنه مادامت ساقا الانسان قادرتين على حمله فيجب أن يجرى كالقطار .. القطار الذى أتصور الآن أننى أمضى وأنا أجره بحبل ..

التليفون مرة أخرى .. بقدر مايزعجنى رنينه فإنه يريحنى .. إنه يكاد يكون وسيلة الاتصال الرئيسية بينى وبين العالم الخارجى .. لقد بذلت زوجتى محاولات مضنية لاقناعى بالخروج والذهاب إلى مكتبى ولكنى رفضت بإصرار .. وذات يوم فاجأتنى بخبر ظنته سيسعدنى عندما قالت إنها اتفقت مع شركة أجنبية على إجراء تعديلات فى السيارة الجديدة التى إشترتها لى حتى يمكن إدارتها بالكامل يدوياً وقالت إن هذا سيمكننى من الذهاب إلى حيث أريد .. ولكننى رفضت الفكرة بإصرار .. لم يكن الأمر مجرد قيادة سيارة .. لاأريد أن أرى نظرات هى مزيج من العطف والشفقة والنفاق .. بالتأكيد وأنا فى هذا الواقع سأجد كثيرين يهتمون بى .. عندما تتوقف السيارة سأجد أكثر من يد تمتد لمساندتى ولكن هذا بالتأكيد لن يكون راجعاً للرغبة فى المساعدة بقدر ماهو طمع فى المكافأة .. أنا لاأحب المشاعر التى تبذل فى مقابل أجر .. إن الذين يقدمون العطف مقابل أجر لايختلفون كثيراً عن نساء الليل اللاتى يبعن أجسادهن بأجر فى الأركان المظلمة والبنسيونات الحقيرة .. الآن أتمنى لو عدت بضع سنين للوراء .. إذا لغيرت مجرى حياتى تغييراً جوهرياً .. ولكن عجلة الزمن لاتدور للخلف .. هى للأمام دائماً .. طريق ذو اتجاه واحد .. ليس هذا هو ماأتمناه أنا فقط ولكن ماتتمناه زوجتى أيضاً وتعلنه كل يوم كأنه إضافة للصلوات الخمس التى تؤديها بانتظام .. أذكر يوم أجريت لى العملية الجراحية .. كنت بين النوم واليقظة .. وكانت مستلقية على صدرى تبكى وهى تعلن أنها مستعدة لأن تتنازل عن كل شىء فى مقابل أن تشفى .. ولكن ثمة أشياء لانملكها .. الميلاد والموت .. المرض والشفاء .. كلها أشياء لانملكها ويجب أن نتقبلها كما هى .. وكل محاولاتنا للعلاج هى مجرد أسباب .. وتبقى النتائج غير خاضعة فى أغلبها لإرادتنا .. وهكذا ظلت عضلات الساقين تضمر وتتحدى كل علاج .. حتى العملية الجراحية فشلت وأدت إلى نتائج عكسية .. قال لى الطبيب :

ــ لو أنك تداركت الأمر فى بدايته فلربما أمكن العلاج .. ولكنك تأخرت كثيراً ..

ــ كنت فى البداية أظنه آلاما روماتيزمية بسيطة .. لم يكن هذا فى الواقع رأيى وحدى .. كان رأى بعض الأطباء .. ولم يكن لدى وقت كاف للتردد على الأطباء أو للانتظام فى العلاج .. كانت العمارة التى بنيتها تقع فى موقع ممتاز .. ومن الناحية المعمارية كانت تحفة رغم صغر حجمها .. وهكذا تلقيت عرضاً مغرياً فبعتها بضعف تكاليفها .. ولم يكن بناء عمارة جديدة بالأمر الصعب .. وهكذا دارت العجلة وقطع الحبل وانفلت القطار ومضى فى طريقه لا يلوى على شىء .. أصبحت الأعمال من الكثرة بحيث كان على أن أضاعف عدد العاملين فى المكتب بضع مرات .. ثم كان على أن أجد مقراً جديداً للمكتب فى موقع أفضل .. خصصت للمكتب طابقين فى عمارة جديدة بنيتها .. وقالت لى زوجتى فى أحد الأيام :

ــ أنت لم تكمل الأربعين بعد ومع ذلك فقد ابيض شعرك وصرت تتوكأ على عصا ..

ــ اطمئنى .. سأنجز مشروعنا الجديد وأستريح .. أقصد نستريح معاً ..

ــ لا يبدو أننا سنستريح أبداً ..

ــ صدقينى .. عندما ينتهى المشروع سأعطى نفسى إجازة طويلة نسافر فيها للخارج .. نشاهد الدنيا وتكون فرصة لإجراء الفحوص الطبية اللازمة ..

ــ هذه هى المرة الألف التى أسمع فيها هذا الكلام .. لذلك لم أعد أصدق ..

ــ صدقينى هذه المرة ..

بكت .. كانت شبه منهارة .. ألقت بنفسها بين يدى وهى تردد :

ــ يا إلهى هل كتب علينا أن نظل طوال حياتنا نلهث ؟ ..

كانت قد استقالت من عملها وتفرغت للبيت .. كان عملها يشغلها إلى حد ما .. ولكنها أصبحت تعانى من الفراغ .. لم يكن الأولاد كافين لشغل وقتها .. كان ثمة شىء ينقصها هو وجودى معها .. وكان هذا الأمر ينقصنى أنا أيضاً ويعذبنى .. ولكنى كنت آمل أن يأتى يوم تستقر فيه أمورنا بشكل تام .. ولكنى لم أستطع فى الواقع أن أصل إلى معرفة الحد الذى يجب أن أقف عنده ..

كان نجاح كل مشروع جديد يغرى بالدخول فى مشروع آخر .. وكل إضافة إلى رصيدى فى البنك تغرى بالاستزادة .. اللعنة .. كيف يستطيع إنسان أن يقاوم إغراء المال .. أليس المال هو أحد عنصرين هما زينة الحياة الدنيا .. المال والبنون .. المال أولًا ثم البنون .. ولدى البنون ويجب أن يكون لدى المال .. ولكن أى قدر من المال .. نعم .. أى قدر من المال .. ماالذى يقنع الإنسان بالتوقف .. لابد أن الزهاد ليسوا بشراً عاديين .. لابد أنهم من طينة غير طينة البشر .. ولك من يدرينا أن هؤلاء الزهاد الذين تحدثنا عنهم الكتب لوعاشوا فى أيامنا هذه سيحتفظون بزهدهم .. أغلب الظن أنهم كانوا سيصابون بانهيارات عصبية ..

دفعت مقعدى فى اتجاه التليفون .. الخادمة تسرع فى اتجاهه فى نفس الوقت .. جسمها يترجرج داخل ثوبها البسيط .. المخروطان المتقابلان يتبادلان الحركة .. أقماع السكر فى محلات القرية وبطاقة التموين القديمة المتهرئة .. صحفى يصف راقصة بأنها مثل طبق الجيلى .. لم ألاحظ جسد الخادمة من قبل .. الخادمة تناولنى سماعة التليفون .. يدانا تتلامسان .. يدها دافئة .. لم ألاحظ ذلك من قبل .. حتى بعد أن تزوجت وعادت إلينا بعد موت زوجها ظلت مجرد بنت .. زوجها مات فى الحرب .. هل كان سعيداً أم حزيناً وهو يواجه الموت .. على أى حال فقد استراح .. الموت أفضل من أن يعيش مشوهاً أو عاجزاً .. أتذكر عبارة فى قصة قالها كاتب أجنبى .. القصة كانت عن الحرب .. والعبارة يقول فيها : على المستوى الشخصى للإنسان .. الحرب مهما كانت أسبابها .. الانتصار أو الهزيمة .. كل ذلك لا يساوى فقد ساق أو تشوه وجه .. ترى بم يشعر مشوهو الحرب .. هل يشعرون بالزهو حقيقة أم بخيبة الأمل .... هل النتائج العامة للحرب كالانتصار أو تحقيق مكاسب قومية يعوضهم عن خسارتهم الشخصية .. لست أدرى .. على أى حال الموت أفضل من العجز .. ولكن هذه أشياء لا نختارها نحن ولكنها تفرض علينا من الخارج ..

الخادمة ناولتنى السماعة ومضت .. المتحدث هو مساعدى فى المكتب .. كان يستوثق من رأيى فى بعض الأمور الخاصة بالعمل .. أشعر أنه يلاحقنى .. كأنه يريد أن يتأكد من أننى لن أفاجئه بزيارة المكتب .. دقيق هو حقاً وأمين .. ولكن ماالذى يضمن أن يستمر هكذا فى غيابى .. عندما كنت فى المكتب كنت أطمئن بنفسى على كل شيء .. وأتابع بنفسى كل شيء .. وأوقع بنفسى على كل الأوراق .. ولم أكن أغادر المكتب إلا بعد الاطلاع على دفاتر الحسابات ومراجعة رصيد البنك .. كان ثمة

رصيدان .. رصيد خاص بالمكتب ورصيد باسمى .. وكنت أحتفظ لنفسى بحق التوقيع على شيكات المكتب .. ولكننى اضطررت لاعتماد توقيع مساعدى لدى البنك وأعطيت زوجتى توكيلًا للتوقيع على الشيكات للسحب من رصيدى الخاص .. قليلًا قليلًا أتنازل عن صلاحياتى أو بالأحرى عن وجودى .. كان عملى ونجاحى هما الشاهد الوحيد على وجودى .. لم يكن الأمر متعلقاً بالمال فقط كما اعتادت زوجتى أن تتهمنى .. كان المال فى تقديرى مجرد وسيلة وليس هدفاً فى حد ذاته ..

ــ وسيلة لماذا ؟

سألتنى زوجتى ذات يوم ..

ــ وسيلة لتحقيق السعادة ..

أجبتها .. وسألتنى من جديد فى تحد :

ــ عن أى سعادة تتحدث .. سعادة أن ترى عماراتك تعلو واحدة تلو الأخرى .. وأن ترى مكتبك ينمو ويكتظ بالموظفين .. وأن ترى رصيدك فى البنك يتضخم ..

ــ أبداً .. الأمر ليس هكذا ..

ألقت القفاز فى تحد وسألت من جديد :

ــ إذن ماذا ، متى نستريح ، متى نعيش حياتنا ؟. إننى أتمنى أن نعود إلى شقتنا الصغيرة ذات الغرفتين .. بكت وواصلت :

ــ فى هذه الشقة كان حبنا الحقيقى .. وكان إحساسنا بالإطمئنان .. لم نكن نخاف على شيء .. كان لدينا على الأقل الأمل فى أن نصبح أفضل .. كان أملنا صغيراً صغيراً .. مجرد أن ننتقل إلى شقة أوسع .. أن نربى أبناءنا بشكل أفضل وفى ظروف أفضل ..

ــ وما الذى تغير ؟ ..

سألتها .. وأجابت من بين دموعها :

ــ تغير كل شيء .. ليس تغييراً الذى أصابنا .. ولكنه تخريب .. الآن أصبح لدينا المال .. وأصبحنا نخشى عليه فلابد أن نزيده .. الآن نتبادل الحب بحكم العادة .. ونؤدى واجباتنا الزوجية بطريقة مملة .. لم أعد أشعر بالأمان .. الآن أخاف أن تضيع منى .. بل أشعر أنك ضعت بالفعل .. انظر إلى نفسك كيف صرت ..

استشارتى .. ذكرتنى بهمومى وآلامى ومتاعبى.. غضبت.. صرخت فيها:
ــ الآن تنتقدينني .. ولكن أليس كل ما أفعله إنما هو من أجلك ومن أجل أبنائك ..

صرخت فى وجهى :
ــ اللعنة .. لا أريد مالك .. لا أريدك .. ولا أريد حتى أبناءك ..

إنهارت .. واحتاج الأمر إلى علاج طويل بالمهدئات .. وقررت أن أجرى تغييراً فى حياتنا وبدأت بناء فيللا ضخمة وفخمة فى الضاحية .. عارضت زوجتى الفكرة معارضة عاتية .. ولكنها لم تفلح فى وقف المشروع .. واكتمل بناء الفيللا وتجهيزها وأنا فى المستشفى .. كانت الأمور قد ساءت .. لم يفلح العلاج .. أجريت العملية وكانت نتائجها سلبية .. وساءت الأمور أكثر .. بدأوا تدريبى على استخدام الأجهزة ولكن ساق لم تقويا على حملى .. أمضى من جديد أقبض على الحبل وأجر القطار .. قطار ذهبى هذه المرة لكنه قطار .. وأنا لم أعد أنا .. لم تعد لدى تلك القدرة ..

زوجتى تأخرت .. الأولاد لم يحضروا بعد .. دفعت مقعدى فى كل إتجاه .. قادنى مقعدى إلى غرفة الاستذكار .. لكل من الأبناء الأربعة مكتب وأرفف خاصة .. زوجتى علمتهم ترتيب كل شىء .. الترتيب والنظام علامتان هامتان على شخصية زوجتى .. بدقة شديدة كانت تضع ميزانية البيت منذ بدء حياتنا الزوجية .. لكل نوع من الانفاق بند خاص به .. السكن .. اللحوم .. الخضروات .. الفاكهة .. الإدخار .. النزهات .. كل شىء كان ينفذ بدقة ماعدا بند النزهات لم نلتزم به .. كنا دائماً .. أو بالأحرى كنت أؤجل هذه النزهات فى البداية وأعتبرها ترفاً ثم بعد ذلك لم يعد لدى وقت للنزهات .. ولكن زوجتى ظلت على دقتها فى كل شىء .. لاتنسى حتى الأشياء البسيطة واللمسات البسيطة .. كل ولد أو بنت له أشياؤه الخاصة أو أشياؤها الخاصة ولابد أن يعرف أو تعرف مكان هذه الأشياء على وجه التحديد .. وثمة تقاليد أوجدتها ويحافظ عليها الجميع ... لابد أن أقبلها عندما أخرج صباحاً وعندما أعود فى المساء .. الآن تغير الوضع .. أصبحت تقبلنى عندما تخرج لسبب أو لآخر ثم عندما تعود .. حتى لو تصادف أن عادت وكنت نائماً .. وكم من مرة إستيقظت لأجدها بجوارى على السرير تتأملنى .. كان المفترض أن تكون غرف النوم كلها فى الطابق الأعلى من الفيللا ولكن بالنظر للظروف التى وقعت حدث تعديل

وجهزت لى غرفة بالطابق الأسفل .. إقترحت أنا أن تكون لها غرفة خاصة بها مع غرف الأولاد ولكنها رفضت بتصميم وأصرت على أن تكون لنا غرفة واحدة معاً .. عجيب أن يحتفظ إنسان بكل هذه المقدرة على الحب طوال هذه السنين وبرغم كل هذه الظروف .. أم ياترى يمكن أن يصبح الحب عادة ... أقصد يكون قد أصبح التعبير عن الحب جزءاً من برنامجها اليومى .. لاأظن .. لست متأكداً من شيء ..

دفعت مقعدى إلى البهو .. الخادمة تغير غطاء المائدة .. المخروطان المتقابلان يترجرجان .. لماذا اختارت لحظة وجودى لتغير الغطاء .. ربما ثمة سبب لذلك وربما ليس ثمة سبب على الاطلاق .. لكن بصرف النظر عن ذلك فاننى أشعر بشكل ما بأننى أمام تحد للقوة.. وهو تحد مثير يمنع من السقوط فى هاوية الملل والرتابة .. تابعتها بعينى .. لاحظت وجودى أو هكذا بدت .. الماكرة .. سألتنى إن كنت أريد شيئاً .. لم أرد واتخذت طريقى إلى خارج الفيللا .. أمسكت بالسور ومقعدى ينزلق فوق المنحدر المؤدى للحديقة .. هذا المنحدر هو أيضاً أحد التجهيزات الاضافية التى استحدثت لتناسب ظروفى .. زوجتى حريصة على أن توفر لى كل أسباب الراحة .. ولكن من أين تأتى الراحة .. وماهو فى الأصل معنى الراحة .. هل هو الاحتباس بين الجدران فوق مقعد متحرك .. ماأكثر ماحلمت بالراحة .. بأن آخذ زوجتى معى ونطير فى كل أرجاء الدنيا .. وأن نعيش أياماً سعيدة بلاهموم .. ولكن من الذى يختار حياته حقا . كانت زوجتى إنسانة شديدة القناعة .. وكنت أريد أن أسعدها .. ولكن .. اللعنة .. كيف أسعدها وأسعد بها وأنا هكذا أعيش نصف حياة ..

صفارة مصنع قريب تنطلق مؤذنة بفترة الراحة للعمال .. الراحة .. الراحة هى أن نتوقف قليلًا نلتقط أنفاسنا لننطلق من جديد وليست أن ننتقل من ملل إلى ملل .. لست أدرى من الذى قال إننا من فرط ما نصاب بالملل نتحول إلى حالة نمل فيها الملل ذاته .. الكاتب الايطالى البرتو مورافيا يقول فى حديث صحفى إنه يمكن أن يكون الملل أو السأم تفسيراً منطقياً لتقلبات التاريخ .. تصاب البشرية بالملل من حياتها فتتحرك للتغيير .. ولكن كيف أتحرك وماذا أغير لو تأتى زوجتى الآن فتخبرنى إن كان قد جرى إتصال بالطبيب الأجنبى .. الساعة الواحدة .. ماأبطأ ماتمر الثوانى .. كأن عقارب الساعة هى الأخرى تجر قطاراً بحبل ..

عدت إلى داخل الفيللا .. أردت أن أنام .. بقيت ساعة ويصل الأولاد من مدارسهم .. ساعة كاملة أخرى أظل خلالها ساقطاً فى قاع الملل والرتابة .. إتجهت إلى التليفون .. طلبت رقم صديقى فلم يرد .. اللعنة .. ناديت الخادمة واتجهت بمقعدى إلى غرفتى .. جاءت ورائى .. دفعت مقعدى برفق .. شممت رائحتها الأنثوية .. إختبار التحدى من جديد .. هى تقصد أو لا تقصد .. براءة وجهها طبيعية أو مصطنعة .. هذا لا يعنى شيئاً .. إختبار التحدى قائم ولا مجال لتجاهله .. إختبار يكسر الملل ويمنع المرء من التردى فى قاع الرتابة والعجز .. وصلنا إلى السرير.. شرعت فى الإنتقال إلى السرير بمعاونتها .. مددت ذراعى باتساع كتفيها .. لامس صدرها جانبى .. قررت أن أستمر فى لعبة التحدى .. حاولت أن أقف على قدمى .. هذا غير ممكن .. انزلق المقعد بعيداً .. كانت أمامى خطوة لابد أن أخطوها إلى السرير .. لم يكن ذلك ممكناً .. حاولت أن أستدير لألقى بجسمى على السرير .. كانت الحركة مفاجئة .. هممت بأن أسقط .. حاولت منعى .. لم تستطع .. سقطنا معاً على الأرض .. طبق الجيلى والجيب المفتوح والمخروطان المتقابلان ورائحة الغابات البكر والفحولة تتحدى العجز والمقعد المتحرك .. أبدت مقاومة خفيفة ثم إستكانت .. زوجها مات بعد أسابيع من زواجها فلم ترتو بالقدر الكافى .. ماتزال أرضاً بكراً وغابة وحشية وطأتها قدم غريبة ثم إختفت .. تأملت الوجه .. فى ثوان تبدل لونه بضع مرات العينان مغلقتان والفم منفرج قليلًا والأنفاس تتردد فى وحشية الغابات البكر والأرض العطشى .. إستغرقتنا اللحظة .. تأملت وجهها .. كانت تبدو كأنها فى إغفاءة .. لست أدرى ماالذى حدث .. رأيت وجه زوجتى .. شعرت بالخجل .. لم تكن الخيانة فى طبعى .. كنت دائماً أرى أن الخيانة سلوك منحط ... لذلك لم أقدم عليه .. تعرضت لإغراءات كثيرة .. ومالت نفسى كثيراً .. ولكنى لم أخن أبداً .... رأيت وجه زوجتى .. شعرت بالخجل .. تكونت حبات من العرق البارد على جبينى . بذلت جهداً خارقاً لأنقل جسمى .. لاأجر القطار بحبل هذه المرة وإنما أحمله فوق نصفى الخامل .. قاومت الثقل ... أزحت نفسى بعيداً .. أفلتها فانفلتت . أفاقت .. نهضت وهى فى ذهول مما حدث .. نظرت إلى بدهشة .. شعرت نحوها بكراهية شديدة .. لماذا استكانت بهذا القدر هذه اللعينة هل يمكن أن يكون هذا إستسلاماً لوضعها العام فى البيت وقبولا بكل ما يترتب عليه أن تكون خادمة وخليلة أيضاً .. هل يمكن أن يكون ذلك بدافع الشفقة اللعنة .. صرخت فيها :

ـــ إذهبى من أمامى ..

ذهبت وهى صامتة .. نظرت حولى .. ماأبعد المسافة بين السقوط فى الرتابة وبين السقوط فى الإنحطاط .. شعرت أن شيئاً يتصدع داخلى وكأنى أسمع صوته .. إنتابتنى رغبة حادة فى البكاء .. كان المقعد بعيداً .. المسافة بينى وبينه بلا نهاية .. كأنه سراب .. أجر قطارى وأتجه نحوه .. وصلت إليه .. حاولت أن أصعد إليه .. مال المقعد وسقط .. جاءت الخادمة وقد سمعت الصوت .. عدلت المقعد .. أعانتنى على النهوض والجلوس فى صمت .. غادرت الحجرة وهى منكسة الرأس .. ترى هل هو الشعور بالخجل أو الأحباط .. لاأعرف .. لاأريد حتى أن أعرف .. لم أعد أطيق المكان .. لاأطيق حتى وجودى ذاته .. أدرت عجلات مقعدى خارجاً من الغرفة .. تنفست الهواء البارد فى الخارج .. ملأت صدرى بالهواء .. لم يتوقف إحساسى بالاختناق .. دفعت المقعد عبر المنحدر المؤدى للحديقة .. اتخذت طريقى عبر الحديقة .. كان الباب الخارجى مغلقاً .. صحت منادياً البستانى الذى جاء على عجل .. طلبت منه فتح الباب فنظر إلى مندهشاً .. صرخت فيه آمراً ففتح الباب مستسلماً ولم يكد يتخلص من دهشته .. خرجت ليقودنى مقعدى لست أدرى إلى أين .

جدة – سبتمبر ١٩٧٩

الفهـــــرس

	الصفحة
الإهـداء	٩
الأصبـاغ	١١
قرد فوق الستار	١٧
مكان لشخصين فقط	٢٣
الخـــوف	٣٣
العيـــون	٣٩
النقـش بالأظافـر	٥١
المـوت ضحكـا	٥٧
امـرأة مقعـدة	٦٣
غلطـة العمـــر	٧٩
لعبـة التـوازن	٨٧
الجـــزاء	٩٥
فياسكـــو	١٠٣
نـــداء القلـوب	١٢١
ســـوء تفـاهم	١٣٥
العمـــلاق	١٤٣
هــــارب	١٥٣
الصيـد فى بحار جافة	١٦١
صـك البـــراءة	١٦٧
القطـار والحبل	١٧٣